مشروع إعداد نسخة إلكترونية
لحولية كلية اللغة العربية بالمنوفية
إعداد وتنفيذ
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد في الكلية

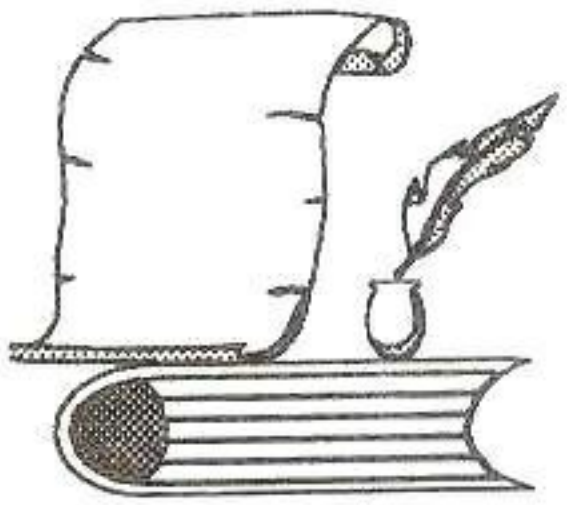

قراءة أدبية نقدية في شعر أبي محجن الثقفي

الدكتور
السيد فتح الله عبد العزيز غزالة
مدرس الأدب والنقد
كلية اللغة العربية بالمنوفية
جامعة الأزهر

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السابع عشر (المجلد الأول)، مطبعة الحرمين ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريف بالشاعر:

هو أبو محجن عبد الله بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة الثقفى[1] شاعر مخضرم، وأحد الأبطال الكرماء فى الجاهلية والإسلام، أسلم فى العام التاسع للهجرة النبوية عندما أتى مع وفد بنى ثقيف إلى المدينة. وهو شاعر فارس شجاع، معدود فى أولى البأس والنجدة، وكان من المعاقرين للخمر المحدودين فى شربها، وقد روى عدة أحاديث.

روى ابن عبد البر: «أن عمر ـ رضى الله عنه ـ حده فى الخمر ثمانى مرات، فأبى أن يقلع، ولما كثر شربه للخمر وأقيم عليه الحد مرارا وهو لا ينتهى، نفاه عمر إلى جزيرة فى البحر يقال لها: «حضوضى»، فهرب منها على ساحل البحر، ولحق بسعد بن أبى وقاص، وبلغ عمر ـ رضى الله عنه ـ خبره، فكتب إلى سعد بحبسه فحبسه إلى أن كان يوم «أرماث»[2]. وفى يوم الكتائب اشتد القتال إلى أن انتصف الليل وفى صبيحة هذه الليلة كان يوم «أرماث» فصعد «أبو محجن» إلى «سعد» يستعفيه فمنعه ورده، وكان مقيدا يومئذ عند «زبراء» أم ولد سعد بن

---

(١) اختلف فى اسمه فقيل: إنه عمر بن عمير، وقيل: مالك بن حبيب، وقيل: حبيب ابن عمر. والمرجح بين العلماء: عمر بن عمير.

(٢) شرح ديوان أبى محجن الثقفى لأبى هلال العسكرى تحقيق: يوسف عبد الوهاب. ص: ١٠ .

أبى وقاص فقال لها: أطلقينى، فلك الله لئن فتح الله على المسلمين وسلمت، لأرجعن حتى أضع رجلى فى القيد، فأطلقته، وحملته على فرس لسعد، فأخذ الرمح وخرج فقاتل، فحطم المشركين، وكان سبب هزيمتهم، فقال سعد: «لولا أن أبا محجن محبوس لقلت: الفارس أبو محجن»، فلما فتح الله على المسلمين رجع إلى محبسه. فقال له سعد ـ بعد أن علم خبره: «لا أضربنك فى الخمر أبدا»، قال أبو محجن: «وأنا والله لا أشربها أبدا»(١).

وقد توفى أبو محجن بأذربيجان أو بجرجان سنة ٣٠ هـ ـ غفر الله له ورضى عنه ـ بعد أن أقلع عن شرب الخمر، وقال لسعد: كنت آنف أن أدعها من أجل جلدكم!! لله دره ما كان أنبله!!

ذكر صاحب الأغانى فى قصة هروبه من جزيرة «حضوضى» شعرا ذكر فيه أبو محجن هروبه من ابن جهراء:

الحمد لله نجانى وخلصنى ... من ابن جهراء والبوصى قد حبسا

من يجشم البحر والبوصى مركبه ... إلى حضوضى فبئس المركب التمسا

أبلغ لديك أبا حفص مغلغلة ... عبد الإله إذا ما غار أو جلسا

انى أكره على الأولى إذا فزعوا ... يوما، وأحبس تحت الراية الفرسا

أغشى الصياح وتغشانى مضاعفة ... من الحديد إذا ما بعضهم خنسا(٢)

---

(١) السابق نفسه ص: ١٠ .

(٢) انظر الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ١٩ / ١ .

جوانب شخصية أبى محجن من شعره:

قال الشيخ أبو هلال العسكرى الحسن بن عبد الله بن سهل ـ رحمة الله عليه ـ عن أبى وحجن الثقفى: كان شاعرا شريفا، قد فضلت أبياته القافية على كل شعر قيل فى معناها، وهى هذه(١):

لا تسألى الناس عن مالى وكثرته ... وسائلى القوم عن دينى وعن خلقى

قد يعلم الناس أنا من سراتهم ... إذا سما بصر الرعديدة الفرق

أعطى السنان غداة الروع نحلته ... وعامل الرمح أرويه من العلق

وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض ... تنفى المسابير بالإزياد والفهق

عف الإياسة عما لست نائلة ... وإن ظلمت شديد الحقد والحنق

وأكشف المارق المكروب غمته ... وأكتم السر فيه ضربة العنق

فى شعره بين الشاعر مقياس المفاضلة بين الناس، وهو الخلق الكريم والدين الصحيح؛ فهما ثروة المرء الحقيقية، أما المال وكثرته وقلته وغنى المرء وفقره فليس مقياسا للمفاضلة؛ فالمال يفنى ولا يفنى الخلق والدين، وقال شوقى:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ثم أضاف أبو محجن للدين والخلق الكريم صفات أخرى ميزته عن غيره؛ فهو الشجاع القوى فى الحرب يروى سيفه من دم أعدائه عندما يكر عليهم، وطعنته تصيبهم فى مقتل، وهو العاقل الأريب الذى لا يطمع

---

(١) انظر ديوان أبى محجن الثقفى، تقديم د/ صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط أولى ١٩٧٠م، ص: ١٥ .

فيمـا هو بعيد المنال، ولا يرضى بالظلم أبدًا؛ بل يسـاعد ويعين المظلوم، ويكشف المكروب، ويكتم السر ولو كلفه هذا الكتمان حياته ثمنا له.

يقول:

قد يقتر المرء يوما وهو ذو حسب وقد يتوب سوام العاجز الحمق

قد يكثر المال يوما بعد قلته ويكتسى العود بعد الجدب بالورق

وقد أجود بمالى وما مالى بذى قنع وقد أكر وراء المحجر البرق

سالت أبيات الحكمة على لسانه رقة وعذوبة وروعة؛ فالمرء قد يصيبه داء التقتير والبخل رغم غناه؛ فيقتر على نفسه ويبخل على غيره بماله واحترس بقد فى أول البيت حتى لا يظن أحد أن ما قال أصبح مقياسا أو قاعدة، وقد يكثر المال فى يد الفقير الذى حرم كالعود من النبات والشجر يكتسى فى الربيع بالأوراق بعد سقوطها عنه فى فصل الخريف، وقد يجود الفقير بماله فى وقت يبخل الغنى به، ويقرر أنه من هذا النوع؛ يجود بماله على من يحتاج إليه، ويهجم على أقوى الأبطال ولو لم يكن معه من العدة والعتاد ما يكفيه للقتال.

وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ يفضل هذه الأبيات، ويتهم رأيه فيها فلا يذكر ذلك، إلى أن قال لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه: من أشعر الناس؟ قال: الذى أحسن الوصف، وأحكم الرصف، وقال الحق. قال عمر: ومن هو؟ قال: أبو محجن فى قوله: «لا تسألى الناس عن مالى وكثرته». قال عمر: أيدتنى يا أبا الحسن أيدك الله. فما زلت مؤيدا فى كل خير. وهذا أول ما قيل أيدك الله. ثم قال له: قد صدق فى كل ما ذكر، لولا آفة كانت فى دينه من حبه للخمر ولقد تركها آنفا. والأنف

من الكرم، والكـرم من الإيمان، لقـوله تعـالى: «إن أكـــرمكم عند الله أتقـاكم»، فقـال عـمر ـ رضى الله عنـه ـ: يأبى الله يا بنى هاشم إلا أن يسودكم فى الدين والدنيا. قال الشعبى: فلم يكن فى الحى فتى لا يحفظ هذه الأبيات فتعد له مروءة.

يضم إلى ما سبق من صفات الشـاعر أنه كان وفيا لآبائه وأجداده؛ يفخر بمحامدهم وأمجادهم وشجاعتهم التى ورثوها كابرا عن كابر، فكان يذكر ذلك شعرا يروى ويجرى على الألسنة وتسير به الركبان؛ يقول:

عـمى الذى أهدى لكسـرى جيـاده ... لدى البـاب منهـا مـرسل ووقـوف

عـشـيـة لاقى التـرجـمـان وريه ... فـأداه فـردا والوفـود عكوف

فعـمه هو «غيلان بن سلمـة الثقفى» الذى دخل على «كـسرى» ثم أهداه، والوفود التى جـاءت معه لزمت مواضعـها لم تدخل على الملك؛ فلم يأذن لهم، وهذا مظهر حفاوة ودليل شجاعة(١).

وكان «أبو محجن الثقفى» ذا عاطفة رقـيقة؛ فقد كان يهوى ويعشق ويتغزل فها هو ذا يهوى «سمية» ابنة الحبر اليهودى، وفيها يقول:

وإنى ومـا صـاحت يهـود وطريت ... ثلاث ليـال بالحـجـاز لحـاذر

ولولا ابنة الحبـر اليهودى قد حدا ... بأجمـالنا فى نقب جسـمـان جائر

تقـول ابنة الحبـر اليـهودى مـا أرى ... أبا مـحـجن إلا وللقلب ذاكـر

فـإن ابنة الحبـر اليـهـودى تيـمت ... فـؤادى فـهل لى من سـمـيـة زاجـر

---

(١) انظر الديوان، ص: ٤٤ .

وكان «أبو محجن الثقفى» كريما يعين المحتاج ويساعد الضعيف، ويحمى الجار، ويراعى الأعراف الجاهلية التى أقرها الإسلام، يقول:

وأمنع جار البيت مما ينويه وأكرم أضيافا قراها طروقها

وقد أحب أبو محجن الخمر وأصر على شربها، وقد حدا فيها مرارا وحبس كما مر، يقول:

ألا سقنى يا صاح خمرا فإننى بما أنزل الرحمن فى الخمر عالم

وجد لى بها صرفا لأزداد ماثما ففى شربها صرفا تتم المآثم

هى النار إلا أننى نلت لذة وقضيت أوطارى وإن لام لائم

فعلى الرغم من علمه بالتحريم الذى نزل عن الخمر فى القرآن، إلا أنه أصر على الشرب لتتم لذة الشرب وليزداد إثما، ولن يقلع عن الشرب إلا إذا شملته عناية الله ورحمته، ولما رزقه الله التوبة من شربها تاب وقال:

أتوب إلى الله الرحيم فإنه غفور لذنب المرء ما لم يعاود

ولست إلى الصهباء ما عشت عائدا ولا تابعا قول السفيه المعاند

وكيف وقد أعطيت ربى مواثقا أعود لها، والله ذو العرش شاهدى

ساتركها مذمومة لا أذوقها وإن رغمت فيها أنوف حواسدى

وقد وصف محقق الديوان أبا محجن بقوله: «ولعل أبو محجن أول رائد فى الشعر العربى الإسلامى فى وصف الخمر، وسبق فى ذلك الوليد ابن يزيد الأموى، ومن جاء بعده من أوائل الشعراء العباسيين»(١).

---

(١) انظر الديوان، ص: ٦ .

الأغراض الأدبية فى شعر أبى محجن:

تنوع شعر أبى محجن الثقفى، فنظم فى الخمر شعرا كثيرا، ونظم فى الفخر والحماسة والوصف والرثاء والغزل وشاعت الحكمة فى بعض قصائده، وإن كانت النظرة العامة فى شعره تضعه فى دائرة ضيقة هو حديثه عن الخمر والبطولة وها هى أغراض شعره:

١ - الخمريات:

يدور حديث أبى محجن فى هذا الغرض على وصفه الخمر، وإصراره على شربها، ثم إقلاعه عن شربها، وتوبته منها، فنجده يقول فيها:

ألا سقنى يا صاح خمرا فإننى ... بما أنزل الرحمن فى الخمر عالم

وجد لى بها صرفا لأزداد مأثما ... ففى شربها صرفا تتم المآثم

هى النار إلا أننى ذلت لذة ... وقضيت أوطارى وإن لام لائم(١)

حرص من أبى محجن على قضاء لذته من شرب الخمر رغم علمه بتحريمها، يطلب من صاحبه أن يسقيه الخمر دون خوف من لوم اللائمين.

ثم يقول فى توديعه للشرب وإقلاعه عنه:

ألم ترنى ودعت ما كنت أشرب ... من الخمر إذ رأسى لك الخير أشيب

وكنت أروى هامتى من عقارها ... إذا الحد ماخوذ وإذ أنا أضرب

فلما دروا عنى الحدود تركتها ... وأضمرت فيها الخير والخير يطلب

---

(١) انظر الديوان، ص: ٣٧ .

وقال لى الندمان لما تركتها ... أالجد هذا منك أم أنت تلعب

وقالوا عجيب تركك اليوم قهوة ... كأنى مجنون وجلدى أجرب

تعجب أصحابه الذين صاحبهم زمنا طويلا فى شرب الخمر عندما ترك شربها بعد أن وجد الخير فى ذلك وقد تركها لله، يقول:

ساتركها لله ثم اذمها ... واهجرها فى بيتها حيث تشرب(١)

وعندما قال له الندمان إن شرب الخمر هو الغنيمة وفيه اللذة الكبرى كذبهم فى ذلك؛ لأن الغنيمة فى الإقلاع عن شربها ولأنها تذهب عقل شاربها، يقول(٢):

يقول أناس اشرب الخمر إنها ... إذا القوم نالوها أصابوا الغنائما

فقلت لهم جهلا كذبتم ألم تروا ... أخاها سفيها بعدما كان حالما

وأضحى وأمسى مستخفا مهينا ... وحسبك عارا أن ترى المرء هائما

ويقول فى ذم الخمر، والتوبة إلى الله من شربها(٣):

أتوب إلى الله الرحيم فإنه ... غفور لذنب المرء ما لم يعاود

ولست إلى الصهباء ما عشت عائدا ... ولا تابعا قول السفيه المعاند

وكيف وقد أعطيت ربى مواثقا ... أعود لها، والله ذو العرش شاهدى

ساتركها مذمومة لا أذوقها ... وإن رغمت فيها أنوف حواسدى

لقد أعطى ربه عهودا ومواثيق غليظة ألا يعود لشرب الخمر بعد أن أقلع عنها وتركها مذمومة، فلن يعود إليها رغم أنف أعدائه وحاسديه.

---

(١) انظر الديوان، ص: ٤٠ .
(٢) انظر الديوان ص: ٣٤ .
(٣) انظر الديوان، ص: ٣٥ .

وقال فى الخمر أيضا قبل توبته منها، وكان مع سعد بن أبى وقاص بالقادسية، وكان سعد لا يزال يراه شاربا، فقال له: لتنتهين أو لأوجعنك ضربا. فقال: لست تاركها لقوالك أبدا. قال(١):

إن كانت الخمر قد عزت وقد منعت ... وحال من دونها الإسلام والحرج

فقد أباكرها ريا وأشربها ... صرفا وأطرب احيانا فأمتزج

وقد تقوم على رأسى مغنية ... فيها إذا رفعت من صوتها غنج

ترفع الصوت أحيانا وتخفضه ... كما يطن ذباب الروضة الهزج

فرغم إسلام أبى محجن وبلوغه سنا متقدمة، ورغم ما فى الخمر من حرمة فإنه يشربها ريا وصرفا ويطرب من الشرب كما يطرب لهذه المغنية ذات الصوت الرخيم.

ولأبى محجن الثقفى فى الخمر قصيدة مشهورة يقول فيها(٢):

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفننى بالفلاة فإننى ... أخاف إذا ما مت أن لا اذوقها

أباكرها عند الشروق وتارة ... يعاجلنى بعد العشى غبوقها

وللكأس والصهباء حق منعم ... فمن حقها أن لا تضاع حقوقها

وعندى على شرب العقار حفيظة ... إذا ما نساء الحى ضاقت حلوقها

وأعجلن عن شد المآزر دونها ... مفجعة الأصوات قد جف ريقها

---

(١) انظر الديوان ص: ٤١ .

(٢) الديوان ص: ٤٨

وأمنع جـــار البـــيت مما ينويه وأكـرم أضـيـافـا قـراها طروقـهـا

ليروى بخمر الحص لحمى فإننى أسير لها من بعد ما قد أسوقها(١)

وهى من أجمل وأرق مـا قال فى الخمر، وقد تأثر الشـعراء ومنهم بعض الشعراء العباسيين بأبى محجن، ومنها هذه القصيدة. يقول الشاعر العباسى المخضرم أبو الهندى:

اجـعلوا إن مت يومـا كـفنى ورق الكرم وقـبـرى مـعـصـره

وادفنونى وادفنوا الراح مـعـى واجـعلوا الأقـداح حـول المقـبـره

إننى أرجـــو من الله غـــدا بعـد شـرب الأقداح حسن المغفره

وقول أبو محجن أكثر نعومة ورقة(٢).

قال عوانة: دخل عبيد بن أبى مـحجن على عبد الملك بن مروان، فقال له أبوك الذى يقول:

إذا مت فـادفنى إلى جنب كـرمـة تروى عظامى بعد موتى عروقـهـا

ولا تدفنى بالفـــلاة فـــإننى أخـاف إذا مـا مت أن لا أذوقـهـا

فقال عبيد: يا أمير المؤمنين: لكن أبى الذى يقول: «لا تسألى الناس عن مالى كثرته» وأنشد الأبيات إلى آخرها. فقال عبد الملك: إن كنا أسأنا لك القول فإنا لا نسىء لك العطية، وأمر له بعشرة آلاف درهم(٣)

---

(١) هذا البيت فى الأغانى لم تذكره المصادر الأخرى

(٢) الديوان ص: ٧

(٣) الديوان ص: ٢٣.

٢ - الفخر والحماسة:

هذا هو الموضوع الثانى الذى تناوله أبو محجن الثقفى فى شعره، وهو من أهم الأغراض التى أنفق فيها شعره، وفى مقدمة القصائد التى تمثل هذا الغرض قصيدته القافية التى فضلت على كل شعر قيل فى معناها، يقول فيها

لا تسألى الناس عن مالى وكثرته ... وسائلى القوم عن دينى وعن خلقى

قد يعلم الناس أنا من سراتهم ... إذا سما بصر الرعديدة الفرق

ثم يعود إلى أبيات الفخر بنفسه فيذكر صفات الشجاعة والكرم والمروءة، يقول:

أعطى السنان غداة الروع نحلته ... وعامل الرمح أرويه من العلق

وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض ... تنفى المسابير بالإزباد والفهق

عف الإياسة عما لست نائله ... وإن ظلمت شديد الحقد والحنق

وأكشف المارق المكروب غمته ... وأكتم السر فيه ضربة العنق

ففى الحرب يوجه سهام الخزى وسيوف الكيد لأعدائه، ويروى رمحه من دمائهم، وطعناته واسعة تشمل عددا كبيرا فى المرة الواحدة لتصيب أعداءه فى مقتل، وهذا البطل الشجاع فى الحرب تجده كريم النفس عاقلا لا يطمع فيما لا يناله، بل يتركه دون قنوط ولا يأس ولا ندم، وهو الذى يكشف كرب المكروب، ويكتم السر ويحفظه.

وتتخلل القصيدة أبيات الحكمة التى تسيل فى رقة وعذوبة على لسانه تجده يقول:

قد يقتر المرء يوما وهو ذو حسب وقد يتوب سوام العاجز الحمق

قد يكثر المال يوما بعد قلته ويكتسى العود بعد الجدب بالورق

نعم قد يكون المرء غنيا وذو حسب فى قومه، ويقتر بالمال على نفسه، ويبخل به على الفقير، وقد يصيب الفقير غنى يكثر ماله فيتصدق بما بخل به عليه الغنى، ولا عجب؛ فقد يكثر المال بعد قلته، كما يورق العود بعد الجدب، ثم يعود إلى الفخر بنفسه فيضم إلى ما سبق من صفات وأخلاق صفات أخرى هى مركوزة فيه، يقول:

وقد أجود بمالى وما مالى بذى قنع وقد أكر وراء المحجر البرق

واهجر الفعل ذا حوب ومنقصة واترك القول يدنينى من الرهق[1]

فرغم قلة ماله يجود به على من يحتاجه، وهو يكر بشجاعة على العدو حتى يحاصره فيضيق عليه فيبرق بصره ويشخص طالبا العفو. وهو لا يفعل النقائص، ويترك كل قول يصيبه فى خلقه أو دينه، فيسبب له ضيقا أو حرجا.

ومن قصائد هذا الغرض قوله:

الحمد لله نجانى وخلصنى من ابن جهراء والبوصى قد حبسا

من يجشم البحر والبوصى مركبه إلى حضوضى فبئس المركب التمسا

أبلغ لديك أبا حفص مغلغلة عبد الإله إذا ما غار أو جلسا

انى أكر على الأولى إذا فزعوا يوما، وأحبس تحت الراية الفرسا

أغشى الصياح وتغشانى مضاعفة من الحديد إذا ما بعضهم خنسا

---

(١) انظر الديوان ص: ١٥ .

لقد هرب من محبسه وحمد الله الذى نجاه منه، ثم هو يخاطب صاحبه أن يبلغ أبا حفص ـ عمر ـ رضى الله عنه ـ الذى طلب من ابن جهراء أن يصحبه إلى جزيرة فى البحر هى «حضوضى» أن يبلغه عنه أنه البطل الشجاع الذى يريد أن يجاهد فى سبيل الله لا أن يحبس أو ينفى إلى جزيرة نائية؛ لأنه شرب الخمر، فهو البطل الذى يركب جياد الخيل ويغشى ساحات الحروب والسيوف فوق رأسه لا يهاب الموت ولا يخشى الأعداء فى وقت يفر فيه الجبناء والحمقى، ومن قصائد الفخر والحماسة أيضا فى قول أبى محجن[1]:

أنى تسنت نحونا أم يوسف ... ومن دون مسراها فياف مجاهل

إلى فتية بالطف نيلت سراتهم ... وغودر أفراس لهم ورواحل

وأضحى أبو جبر خلاء بيوته ... بما كان يعفوها الضعاف الأرامل

وأضحى بنو عمر ولدى الجسر منهم ... إلى جامد الأبيات جود ونائل

وما لمت نفسى فيهمُ غير أنها ... إلى أجل لم يأتها وهو عاجل

وما رميت حتى خرقوا برماحهم ... ثيابى وجادت بالدماء الأباجل

وحتى رأيت مهرتى مزوئرة ... لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل

وما رحت حتى كنت آخر رائح ... وصرع حولى الصالحون الأماثل

مررت على الأنصار وسط رحالهم ... فقلت لهم هل منكم اليوم قافل

وقريت رواحا وكورا ونمرقا ... وغودر فى أليس بكر ووائل

ألا لعن الله الذين يسرهم ... ردای وما يدرون ما الله فاعل

---

(١) الديوان ص: ٣٠ .

بدأ قصيـدته بالغزل والتشبيب بأم يـوسف أخت الحجاج بن يوسف الثقـفى، ثم وصف ما حـدث لهؤلاء الفتـية الأبطال الذين صـرعوا فى الحرب، وكيف خلت بيوتهم بعد أن كانت عامرة، ثم يذكر دوره البطولى فى هذه الحرب، فـهو الذى لم يفـر أمام الأعداء ودليله علـى ذلك ثيابه التى خرقوها برمـاحهم، وجروحه التى سالت منها الدمـاء، ومهرته التى أدموا جسدها كله برماحـهم التى لا تخطئ، وما عاد إلا فى نهاية الحرب بعد أن صرع إخوانه الأبطال الصالحون الأماثل.

وهو الذى لم يصـبر على كـر الأعـداء يوم القادسـية ـ وكـان فى محبسه ـ لشربه الخمـر، وقد نظر إلى الناس قد فشلوا فى صد العدوان، حتى طلب من أم ولد سعد بن أبى وقـاص أن تفك قيده ليشارك فى هذه الحرب ووعـدها إن من الله عليه بالحـياة وعلى المسلمين بالنصـر أن يعود ليضع رجله فى القيد مرة أخرى فمنت عليـه وأعطته فرسا لسعد وحملته سلاحـا، واشترك فى الحـرب حتى انتصـر المسلمون وعـاد إلى محبـسه ووضع رجله فى القيد، يقول(١):

كفى حـزنا أن تطعن الخيل بالقنا ... وأصـيح مـشـدودا على وثاقـيـا

إذا قـمت عنانى الحـديد وأغلقت ... مـصـارع من دونى تصم المنايا

وقـد كنت ذا مـال كـثـيـر وإخـوة ... فأصبحت منهم واحدا لا أخا ليا

فإن مت كانت حاجة قد قضيتها ... وخلفت سـعـد وحـده والأمـانيـا

وقـد شف جـسـمى أننى كل شـارق ... أعـالج كـبلا مـصـمتـا قـد برانيا

فلله درى يوم أتـرك مـوثقـا ... وتذهل عنى أسـرتى ورجـاليـا

---

(١) الديوان ص: ٣٧، ٣٨ .

حبيسا عن الحرب العوان وقد بدت وإعمال غيرى يوم ذاك العواليا

ولله عهد لا اخيس بعهده لئن فرجت ان لا أزور الحوانيا

هلم سلاحى، لا ابا لك إننى ارى الحرب لا تزداد إلا تماديا

تصميم وإصرار على الجهاد، وعزم على رد العدوان من هذا الحبيس المقيد فى حد شرب الخمر، وهذا يدل على إيمان صادق، وقد أخذ عهدا على نفسه لله إن نصر المسلمين ومن عليه بالحياة والعودة من هذه الحرب ألا يشرب خمرا ولا يجلس فى أماكن شربها.

وإذا كانت قبيلة ثقيف قد وصفت بالقوة واشتهرت بالشجاعة، فأبو محجن هو أعزها وأقواها وأجودها سيوفا، وأكثرها دروعا، وأقواها صبرا على المكروه، يقول(١):

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنا نحن أجودها سيوفا

وأكثرها دروعا ضافيات وأصبرها إذا كرهوا الوقوفا

وأنا رفدهم فى كل يوم فإن غضبوا فسل رجلا عريفا

وليلة قادس لم يشعروا بى ولم أشعر بمخرجى الزحوفا

فالفخر عنده بنفسه تارة وبقبيلته تارة وبإخوانه الأبطال تارة، ومع الفخر تكون الحماسة بذكر صفات الشجاعة والإقدام.

---

(١) الديوان ص: ٤٣، ٤٤ .

٣ - الرثاء:

ومن أغراض شعر أبى محجن الثقفى رثاؤه لإخوانه الأبطال الذين افتقدهم فى المعارك الحربية؛ فهذا هو القائد أبو عبيدة بن مسعود بن عمرو بن عمير الثقفى الذى سمع به عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يخطب يوم قس الناطف ويقول: أيها الناس، إن الله وعدكم كنوز كسرى، وقيصر فى قوله تبارك وتعالى: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض»(١)، وقال تبارك وتعالى: «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله»(٢). ثم ذكر فارس وجندها الأقوياء، وذكر ما طلب المثنى بن حارثة فى كتابه إلى عمر حيث قال: إنا قد غلبنا أهل فارس على بعض ما فى أيديهم، ومعى رجال صبر وصدق، وإن أمددتنا بجماعة من قبلك رجوت أن يفتح الله علينا. فتثاقل الناس إشفاقا من لقائهم فقام (أبو عبيدة) وقال: أمنا أول من انتدب. ثم قال (سليط بن قيس بن عمرو بن مالك الخزرجى ومعه رهط من الأنصار، ثم تتابع الناس وكثروا، وقالوا: أمر علينا. فقال عمر: أؤمر عليكم أول من انتدب فأمر أبا عبيد.

وبلغ يزدجرد ذلك، فبث القواد فى أطراف مملكته، وأخرج من فيها من العرب. فورد أبو عبيد فى نحو من ألفين، والمثنى فى نحو من سبع مائة، فبث سراياه على قواد يزدجرد، وقصد بعضهم بنفسه فهزمهم، فوردوا يزدجرد فعنفهم وأقصاهم، ودعا بهمردان الحاجب فعقد له على اثنى عشر ألفا. فسار إلى الحيرة وأبو عبيد بها، فأشار عليه المثنى بعبور

---

(١) سورة النور ٢٤، الآية ٥٥ .

(٢) سورة التوبة ٩، الآية ٣٣ .

الفرات فعبر، وجـاء همردان فنزل قس الناطف بينه وبين العرب الفرات. وقال لهم: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم؟ فـقال أبو عبيد: بل نعبر إليكم. فأشار عليه الناس أن لا يعـبر، فأبى، وعقد جسرا وعـبر. فحصل على مستطرد ضيق، فرشقتهم الفـرس فجرح منهم الكثير، ثم تدانى الزحفان فأرسل لفيل فخبط الناس، فتقدم أبو عبيد فى رجال من أصحابه فضرب مشفره وقال:

يا لك من ذى اريع مـا أكـبـرك لأعلون بالحسـام مـشـفـرك

فـإن قـتلت بعـدها فلى درك

واستـدبره أبو محـجن فضرب عـرقوبه فاسـتدار وسـقط. وتعاور الفرس أبا عبيـد فقتلوه، فتداول الراية بعده جماعـة فقتلوا إلى أن انتهت إلى المثنى. فجـاش بها ساعة ثم انـهزم، وانهزم الناس، وركبـهم الفرس فقتلوا منهم ألفا وثمانى مائة، وقتل من الفرس ألفان. وبلـغ الخبر عـمر - رضى الله عنه - فبكى، وقـال: رحم الله أبا عبيـد، لو رجع إلينا لكان فينا فئة له. فقال أبو محجن يرثيه(١):

يا عين بكى ابا جـبـر ووالده إذا تحـطـمـت الـرايـات والحـلـق

يوم بيـوم أبى جـبـر وإخـوته والنفس نفسان منها الهول والشفق

يا ضل ضل المنايا مـا تركن لنا عـزا نبـوء به مـا هـدل الورق

وجب عليـه أن يبكى هذا القائـد المقدام الذى تفـوق على نفسـه، وقاتل الأعداء، وضرب مشفر الفـيل، وتعاور الفرس عليه فقتلوه، يبكيه وهو يتـذكـر ما حـدث منه يوم أن تحطمت الـرايات وهى فى يد الأبطال

---

(١) الديوان ص: ٢٦، ٢٧، ٢٨ .

ويوم أن تحطمت الدروع، ويوم أن اشتد الكرب بالمسلمين فقتل منهم هذا العدد الكثير، يوم أن تمزقت النفس نفسين نفس تأمره بالفرار من الميدان، وأخرى تأمره بالصبر على هول الحرب، يوم أن ذهب عزهم وخضعت رقابهم أمام عدوهم.

وقفة فنية مع شعر أبى محجن الثقفى

يعد أبو محجن الثقفى من الشعراء المغمورين المقلين فى شعرهم باعتراف الشيخ (أبى هلال العسكرى) جامع الديوان الخاص بشعر أبى محجن الثقفى وشارحه: فقد ذكر فى مقدمة الديوان: «ذكرت أن أبا يوسف يعقوب بن السكيت، وأبا سعيد السكرى، وأبا الحسن الطوسى قد عنوا بصنعة دواوين المكثرين والمشهورين من شعراء الجاهلية والإسلام، فأشبعوا تفسير مشكلها، وبالغوا فى إيضاح غامضها، واستقصوا شرح غريبها، متلافين ما فرط فيه غيرهم منها، وأغفلوا دواوين المقلين والمغمورين، فلم يلموا بها.

فالتمست أن أسلك لك فى دواوين المقلين والمغمورين مسلكهم فى دواوين المكثرين والمشهورين، وأتناهى فى الإبانة عن معانيها ليلحق قليل الإحسان بكثيره، ومغموره بمشهوره. وقد أجبتك إلى ذلك فابتدأت بتفسير ديوان أبى محجن، وصنعته صنعة ترضاها. وأنا أتبعه بما يمر بى من دواوينهم واحدا واحدا، حتى آتى على أكثرها إن شاء الله تعالى. وعلى الرغم من قلة شعر أبى محجن، وشهرة غيره من الشعراء عنه، إلا أنه أتى بشعر فضل على شعر غيره فقوله: لا تسألى الناس عن مالى وكثرته وسائلى القوم عن دينى وعن خلقى معناه مأخوذ من قول المنخل اليشكرى:

لا تســـــألى عن حل مـــــالى وانظرى حـــسـبى وخـيـرى(١)

فيـلاحظ على ألفاظ أبى محـجن المتانة والجزالة والسـهولة، ورائق المعنى ودقته، وجمـال الموسيقى وعذوبتها وهذا ما يفـتقد فى قول المنخل اليشكرى. فـفى قول أبى محجن استـخدم (سائلى) والفعل يـفيد تكرار الفعل عندمـا يكون السؤال عن الخلق والدين، أما فى حـالة السؤال عن المال استخدم (تسألى) الذى يفـيد المرة الواحدة وفى الأولى طلب منها أن تسأل أقرب الناس وهم قـومه الذين يعرفون خلقـه ودينه وفى الثانى كان السؤال للناس.

بنية القصيدة الشعرية عند أبى محجن

بنظرة متـأنية فى شعر أبى مـحجن الثقـفى الموجود فى ديوانه الذى جـمعـه (أبو هلال العـسكرى) والمتناثر منـه فى أمهـات الكتب الأدبيـة كالأغانى، والإصابة، والاستيعاب، والشعر والشعراء، وخزانة الأدب مما نسب إليه، تجده عبارة عن مقطعات يـتفاوت عدد أبيات المقطعة الواحدة؛ فمنها ما يبلغ عددها أربعة أبيات، ومنهـا ما يبلغ خمسة أبيات، ومنها ما يبلغ ستة أبيات، ومنهـا ما يبلغ سبعة أبيات، ومنها مـا يبلغ عشرة أبيات أو أحد عشر بيتا، ومنها البيت المفرد، ومنها البيتان، ومنها الثلاثة.

والشعر كما هو معلوم فى الحـقل الأدبى عبارة عن دفقات شعورية وجدانيـة يرسلها الشاعر فى أشكال مـختلفة تتـراوح بين اللمس الخاطف والاسترسال المتـدفق، وهو محكوم فى هذا بمقتضيـات الحال، ومناسبات المقام، والشاعر الجاهلى لا ينفك عن هذا المفهوم بحال «فمن الطبيعى أن

---

(١) انظر الديوان ص: ١٥ .

تجىء نفثات الشاعر الجاهلى كذلك متباينة على هذا الغرار، ومن ثم رأينا فى الشعر الجاهلى ما يسمى بـ «المقطعـة»، وما يسمى بـ «القصيدة» وكان لا مندوحة للشاعر الجاهلى عن كلتيهما»(١).

يقـول الخليل بن أحـمد: «يـطول الكلام ويكثـر ليفـهم، ويوجـز ويختـصر ليحفظ، وتسـتحب الإطالة عند الاعتـذار والإنذار، والترهيب والترغيب، والإصلاح بين القبائل كما فعل «زهير» و«الحارث بن حلزة»، ومن شاكلهما، وإلا فالـقطع أخير فى بعض المواضع، والطوال للمواقف المشهورات».

وقال بعض العلماء: «يحتاج الشاعر إلى القطع حاجته إلى الطوال؛ بل هو عند المحاضـرات والمنازعات والتمـثل والملح أحوج إليـها منه إلى الطوال»(٢).

وفحوى هذا الكلام ـ كما هو واضح ـ أن مواقف الشعراء متفاوتة؛ بل إن موقف الشاعر الواحد يختلف من حالة إلى أخرى مما يشكل القول عنده إلى القطع مرة، وإلى قصيدة مرة.

ويدور شعر أبى محجن الثقفى ـ رغم اختلاف الأحوال والمقتضيات ـ حول القطع، وبلغت القصـيدة عنده أحد عشر بيتـا، وهى اللامية التى يقول فيها:

انى تسـدت نحـونا ام يوسف ومن دون مسـراها فيـاف مـجاهل

---

(١) انظر فى صحبة الأدب الجاهلى ص: ١٢٦ أ. د / فتحى محمد أبو عيسى.

(٢) انظر العمدة جـ١ ص١٨٦ .

وفيـها تحـدث عمـا أصاب قومـه بالأليس وهو موضع قـريب من النخيلة من أعدائهم فتحـدث فى ألم واضح، ولم يقصر فى دفع الأعداء عنهم والمكافـحة دونهم، ولكن كان أجلهم قـد حضـر، وتأخر أجله هو فقتلوا، وبقى بعدهم، يقول:

ومـا لمت نفـسى فـيهم غـيـر انهـا إلى أجل لم يأتهـا وهو عـاجل

فقد وصـف ما حدث للقوم فى هذه المعـركة، وهذا يتطلب الطوال من القصائد، ومع ذلك وصف أبو محجن كل هذا فى قصيدة قصيرة يبلغ عدد أبياتها أحد عشر بيتا، وقـد صنع منها قصيدة متكاملة فنيا فقد بدأها بمقدمة فى بيت واحد هو قوله:

انى تسـدت نحـونا أم يوسف ومن دون مسـراها فيـاف مجاهل

ثم دلف إلى موضوعه الأصلى مباشرة، فقال:

إلى فـتـيـة بالطف نبلت سـراتهم وغـودر افـراس لهم وراحل

حتى قوله:

وقـربت رواحـا وكـورا ونمرقـا وغـودر فى اليس يكر وواقل

ثم ختمها بقوله:

ألا لعن الله الذين يسـرهم ردى وهـا يدرون مـا الله فـاعل

ولا يتأتى هذا إلا للشاعر الفحل الذى تمكن من إجادة فنه الشعرى، وإذا أردنا دليلا آخر على ذلك كانت قصيدته القافية التى فضلت على كل شعر قيل فى معناها، وقد بلغت عشـرة أبيات، وفيها يفخر بدينه وخلقه

---

(١) الديوان ص: ٣٠ .

لا بماله، كمـا يفخر بشجـاعه فى المعارك وكشـفه الكرب عن المكروب، وكتـمانه السر ولو كلفه حـياته ثمنا لذلك، ثم يسوق الحكمـة فى بيتين، ويعود إلى الفخر بعدها مرة أخرى.

وهناك قصيدته البائية التى بلغ عدد أبيـاتها ثمانية أبيات وقد ذكرها شارح الديوان فى الزيادات، وأشار إلى المصادر التى أوردت هذه القصيدة ومنها: الخزانة للبغدادى الجزء الثـالث، والمؤتلف والمختلف للآمدى وفيها يقول(١):

لما رأينا خـيـلا مـحـجلة ... وقـوم بغى فى جـحـفل لجب

طرنا إليـهـا بكل سلهـبـة ... وكل صـافى الأديم كـالذهب

وكل عـراضـة مـثـقـفـة ... فـيـهـا سنان كـشـعلة اللهب

وكل عـضب فى مـتنه أثر ... ومـشـرفى كـالملح ذى شطب

وكل فـضـفـاضـة مـضـاعـفـة ... من نسج داود غـيـر مـؤتشب

لما التـقـينا مـات الكلام ودا ... ر الموت دور الرحـى على القطب

فكلنا يسـتليص صـاحـبـه ... عن نفـسـه، والنفس فى كـرب

إن حـملوا لم نرم مـواضـعنا ... وإن حـملنـا جـثـوا على الركب

وقصيدته (القافية) التى يقول فيها:

إذا مت فـادفنى إلى أصل كـرمـة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها

بلغ عدد أبياتها ثمانيـة أبيات أيضا، كما ورد فى الديوان، وقد زاد الأغانى بيتا آخر لم تروه المصادر الأخرى. يقول فيها:

---

(١) الديوان ص: ٥١ .

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفننى بالفلاة فإننى ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

أباكرها عند الشروق وتارة ... يعاجلنى بعد العشى غبوقها

وللكأس والصهباء حق منعم ... فمن حقها أن لا تضاع حقوقها

وعندى على شرب العقار حفيظة ... إذا ما نساء الحى ضاقت حلوقها

وأعجلن عن شد المآزر ولها ... مضجعة الأصوات قد جف ريقها

وأمنع جار البيت مما ينويه ... وأكرم أضيافا قراها طروقها

والبيت الزائد فى الأغانى هو قوله:

ليروى بخمر الحص لحمى فإننى ... أسير لها من بعد ما قد أسوقها(١)

وقد وضعوا فروقا بين المقطعة والقصيدة، فقالوا: إن الأبيات إذا بلغت سبعة أو جاوزت العشرة كانت قصيدة، وإلا فهى مقطعة»(٢).

وعلى ما تقدم يكون ما ذكرناه من شعر لأبى محجن قصائد كاملة، وما عدا ذلك فهى مقطعات يصل عدد أبيات بعضها ستة أبيات، وبعضها خمسة، وبعضها أربعة، وإن كان بعض العروضيين لا يعد الثلاثة الأبيات قصيدة ولا مقطعة، بل يسمونها نتفة، والبيت الوحيد يسمونه (يتيما).

وعلى ما تقدم أيضا نجد أن المقطعة أو القصيدة فى شعر أبى محجن لا تحمل إلا موضوعا واحدا، فيما عدا أقل القليل منها، مثل قصيدة الفخر التى بدأها ببيت تمهيدى فى الغزل: أنى تسدت نحونا أم يوسف..

---

(١) الديوان ص: ٤٨ .

(٢) العمدة جـ١ ص: ١٨٦ .

بهذا يكون قـد توافرت فيـها الوحدة الموضـوعية والـفكرية بجانب الوحدة الشـعورية والفنيـة التى تعبر عن الرباط النـفسى داخل القصـيدة الواحدة.

شاعرية الألفاظ فى شعر أبى محجن:

الألفاظ فى القصـيدة جزئيات حـيوية لبناء عضوى كـامل الأعضاء بحيث إننا لو أبدلنا لفظا مكان آخر، لا يتغيـر العنى فى السياق فحسب، بل يتغير أو يفسد البناء العضـوى الذى كانت الألفاظ ـ بوضعها السابق ـ تشكل جزءا منه؛ لأن العـمل الفنى تمتزج أجزاؤه امـتزاجا عضـويا تاما، ويربط هذه الأجزاء بعـضها ببعض إحسـاس الشاعر أو تجربتـه الشعرية، التى عايشها الشاعر أو أحس بها.

واللفظ فى القصيدة يرتبط بروابط كثيرة ووشائج متعددة، تجعل من القصـيدة كلا واحـدا متناسق الأجـزاء، متلاحم الأعـضاء؛ فـهو يرتبط بمدلوله اللغوى، ومـا له من إيحاءات وظلال، ويرتبط بالتجربة الـشعرية والحالة النفسية التى يعانيها الشاعر، ويتربط ـ كذلك ـ بالصورة الشعرية، كما يرتبط بالغرض الشعرى الذى يقال فيه، وأيضا يرتبط بوزن وموسيقى القصيدة، وهكذا(١)

وبالنظر فى شعر أبى محجن وفى غـرض الحديث عن الخمر حيث كان منهمكا فى شربها، ومنصرفـا ومصرا عليها ـ رغم نزول التحريم فى القرآن ـ وقـد حد على شربهـا مرارا، ونفى بسبب ذلك. كـان بدهيا أن

---

(١) انظر عناصـر الإبداع الفنى فى رائيـة أبى فـراس ص ١٣٧ أ. د/ محـمد عـارف محمود حسين مطبعة الأمانة القاهرة طبعة أولى سنة ١٩٨٨ م.

تتنوع مفـرداته اللغوية المعبرة عن عـذا الغرض تنوعا كبـيرا؛ لأنه «مما لا شك فيـه أن الأغراض الشعـرية، والمعانى التى تندرج تحـتها، لا تتـخذ قوالب التعبير عنها، أو تتماثل فـيها الألفاظ المستعملة، بحيث تأتى على نمط واحد، بل لكل غرض شعرى ألفاظه وتعبيراته التى تناسبه، والشاعر البصـير بمواقع الألـفاظ التى تناسب غـرضه الشـعرى، والعبـارات التى تنسـجم مـعـه، حـتى يتـشـاكل القـالب والمضـمـون، ويتـناغم اللفظ والمعنى»(١).

وقد كان أبو محجن الثـقفى من هذا النوع من الشعراء الأفذاذ الذى يختار ويتخـير ألفاظه بعناية عند الحديث عن الغرض الذى يتـحدث فيه؛ فنجده يردد فى شعره الخمـرى من الألفاظ ما يدل على ذلك بوضوح تام ومناسبـة بينة وهذه أمثلة تدل عـلى ذلك: يسوق لنا لفظة «كـرمة» وهى شجرة العنب التى يؤخذ منها عصير الخمر فى قوله:

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة. . . .

وعن الخمـر يعبر بلفظة «الصهـباء» وهى الخمر المتـخذة من العنب الأبيض، والصـهبـة: حمـرة يعلوها بيـاض فى مثل قـوله: ولست إلى الصهباء ما عشت عائدا. . . . ، وعـبر عن الخمر بلفظة «عقار» فى قوله: وكنت أروى هامتى من عـقارها. . . . ، وبلفظة «قهوة» فى قـوله: وقالوا عجيب تركك اليوم قهـوة. . . . ، وبلفظة «غبوق» فى قوله: أباكرها عند الشروق وتارة يـعاجلنى بعـد العشى غبـوقهـا، والمراد بالغبـوق: شرب العشى، والصـبوح: شرب الغداة، وذكر لفظ الخـمر مرة معـرفة وأخرى منكرة فى قوله:

---

(١) ذاته ص: ١٤٩ .

ألا سقنى يا صاح خمرا فإننى بما أنزل الرحمن فى الخمر عالم

واستخدم لفظة «الكأس» فى قوله:

وللكأس والصهباء حق منعم فمن حقها أن لا تضيع حقوقها

واستخدم لفظة «الندمان» فى قوله: وقال لى الندمان لما تركتها. . . والندمان والنديم سواء، وقيل: الندمان جمع وواحد.

وفى معرض حديثه عن فخره وحماسته معبرا عن شجاعته وقوته ومروءته وكرمه كان يتخير ألفاظه بعناية ودقة بالغتين لتدل على ما أراد بوضوح تام. فنجده يستخدم لفظة «سراة»، وسراة القوم: خيارهم وسادتهم، فى قوله:

قد يعلم الناس أنا من سراتهم إذا سما بصر الرعديدة الفرق

يقول: نحن من خيار القوم فى الحروب، وخيارهم الصابرون على قتال العدو ومدافعتهم فى اللقاء.

ونجده يستخدم ضمير المتكلم فى قوله(١):

أعطى السنان غداة الروع نحلته وعامل الرمح أرويه من العلق

وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض تنفى المسابير بالإزباد والفهق

عف الإياسة عما لسن نائله وإن ظلمت شديد الحقد والحنق

وأكشف المارق المكروب غمته وأكتم السر فيه ضربة العنق

وقد أجود بمالى وما مالى بذى قنع وقد أكر وراء المحجر البرق

وأهجر الفعل ذا حوب ومنقصة وأترك القول يدنينى من الرهق

---

(١) الديوان ص: ١٦ .

وفى قوله(١):

وما لمت نفسى فيهم غير أنها ... إلى أجل لم يأتها وهو عاجل

وما رمت حتى خرقوا برماحهم ... ثيابى وجادت بالدماء الأباجل

وحتى رأيت مهرتى مزورة ... لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل

وما رحت حتى كنت آخر رائح ... وصرع حولى الصالحون الأماثل

وقربت رواحا وكورا ونمرقا ... وغودر فى أليس بكر ووائل

ألا لعن الله الذين يسرهم ... ردای وما يدرون ما الله فاعل

فاستخدامه لضمير المتكلم ساعده على أن يحشد ألفاظا تدل على الفخر، ولم يترك صفة عظيمة يفتخر بها إلا ذكرها، ولا صفة قبيحة إلا نفاها عن نفسه، وهذا الحشد من الألفاظ كان متخيرا بدقة وعناية لكى يؤدى الغرض المطلوب.

وهكذا فى غرض الرثاء كان يتخير من الألفاظ ما يعبر به عن غرضه؛ فنجده مثلا يقول فى رثاء أبى عبيد الذى قتله الفرس يوم «قس الناطف»:

يا عين بكى أبا جبر ووالده ... إذا تحطمت الرايات والحلق

يطلب من عينه أن تذرف الدمع بكاء وحزنا على فقد أبى جبر ووالده بعد أن مات معه كثيرون وتحطمت راياتهم وحلقهم، وكما أن العين تبكى فالنفس تنحسر هولا مما ذاقت وتألمت، يقول:

يوم بيوم أبى جبر وإخوته ... والنفس نفسان منها الهول والشفق

---

(١) الديوان ص: ٢٠ .

والمنايا لا تترك للناس عزا يعيشون فى كنفه، ولا هدوءا يهنأون به، يقول:

يا ضل ضل المنايا مـــا تركن لنا عـــزا نبـــوء به مـــا هدل الورق

فـالعـين والبكاء والألم والهـول والـشـفق والمنايا كل هـذه ألفـاظ استخدمها الشاعر ليعبر بها عما أراد من التفجع ورثاء أحبابه.

الأسلوب فى شعر أبى محجن:

ويأتى حـديثنا الآن عن الأسلوب فى شـعـر أبى مـحجن الثـقـفى لنتعرف إلى سماته الفنية وكيفية صياغته لعبارته الشعرية، وصياغة العلاقة بين ألفاظها، وحينما يطلق لفظ «العبـارة» يتبادر إلى الذهن مجموعة من الألفـاظ قد ضم بعـضهـا إلى بعض، لتؤدى مـعنى يقصـده الكاتب أو الشـاعر «والأديب الحـق ـ كاتبـا أو شـاعرا ـ هو الذى يحـسن تركـيب العبارة، ويجيـد صياغة العلاقة بين هذه الألفاظ فيـختار الألفاظ بعناية، والكلمات بطريقـة معينة، ليـتم بها التناسب ويكمل التناسق فتظهـر وقد أخذ بعضـها برقاب بعض، بل تبدو للعين وكأنما سـبكت سبكا، وصبت فى قالب واحـد. والأدباء شعراء وكتـابا ـ ليسوا على درجـة واحدة من المهـارة والحذق فى تركـيب العبـارات ونظم الكلام، فهناك الماهر الـبارع الذى يحسن ذلك ويـجيده، وهناك المقـصر الذى تبدو تـراكيبـه ضعيـفة باهتـة، وبذلك تتفـاوت أنواع التراكـيب فى العبـارة؛ فقـد تكون ظاهرة واضحة، وقد تكون خفية مستورة، ونعود فنقول: إن العبارة الجيدة تخفى نفسهـا، وتعطينا المعنى مباشرة كـجزء فى عمل فنى مرتبط بـالكل فتأتى طبيعية دون تعسف أو تكلف لا تبدو عليها آثار الصنعة المتكلفة[1]، فهل

---

(١) انظر عناصر الإبداع الفنى فى رائية أبى فراس ص: ١٦١ .

كان أبو محجن الثقفى من النوع الذى يحسن تركيب العبارة، ويجيد صياغتها وصياغة العلاقة بين ألفاظها، أو كان مقصرا جاءت تراكيبه وعباراته ضعيفة باهتة؟ هذا ما سيتضح لنا فى السطور القادمة.

اعتمد أبو محجن الثقفى فى صياغة أسلوبه على سمات فنية فى مقدمة هذه السمات الصور الأدبية المستمدة من الحقيقة، ويتمثل ذلك فى:

١ - أسلوب القصر:

وقد استخدمه الشاعر لأهميته فى توضيح الصورة وتأكيد المعنى على وجه يتطلبه الأسلوب، ومثال ذلك فى شعر أبى محجن قوله:

ولله عهد لا أخيس بعهده لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

قدم «لله» وهو الجار والمجرور، وموقعه خبر مقدم، والمبتدأ قوله «عهد» مؤخر، ليؤكد أن عهده مع الله لا مع غيره أن يترك شرب الخمر ولا يغشى أماكن شربها، وهذا لا يتأتى بدون تقديم الخبر على المبتدأ.

ومثله قوله:

إن الكرام على الجياد مقيلهم فنرى الجياد لأهلها وتعطرى

قدم «على الجياد» وهو الجار والمجرور وموقعه خبر مقدم، والمبتدأ هو قوله «مقيلهم» ليفيد قصر مقيل الأبطال الكرام على ظهور الخيل مجاهدين فى سبيل الله، وكان ذلك واجبا؛ فقد رد بهذا البيت على المرأة التى رأته عائدا من المعركة فظنت أنه منهزم، فقد رجع وحده إلى دار سعد بن أبى وقاص مسرعا قبل عودة جنود المعركة فقالت:

من فارس كره الطعان يعيرنى فرسًا إذا نزلوا بمرج الصفر

أى يعيرنى رمحه لأطاعن به عنه، تعيره الفرار، تقول: إذا فر الرجال فينبغى أن يقاتل النساء، ولا يخفى ما فى بيت أبى محجن من الكناية اللطيفة ومثله قوله:

فلما دروا عنى الحدود تركتها وأضمرت فيها الخير والخير يطلب

قدم فيه «عنى» على «الحدود» وهو مفعول به، ليفيد أن الحدود بعد أن رفعوها عنه ترك شرب الخمر فهو المعنى بالحد عند الشرب لا غيره، وقوله: «فيها» قدمه على المفعول به هو «الخير» ليفيد أن الخير فى تركها لا فى غيره، ومثله قوله:

ألم ترنى ودعت ما كنت أشرب من الخمر إذ رأسى لك الخير أشيب

حيث قدمت «لك» وموقعه الخبر على المبتدأ «الخير» يدعو لصاحبه بالخير له لا لغيره؛ فقد قصر الخير عليه.

ومن سمات الصورة الأدبية التى تميز أسلوب أبى محجن فى شعره تلوين الأسلوب بين الإنشائية والخبرية، ففى قوله:

مررت على الأنصار وسط رحالهم فقلت لهم هل منكم اليوم قافل!

فالاستفهام هنا يفيد التوجع لهم، ونفى رجوعهم وفرارهم أمام العدو.

ومنه قوله:

فقلت لهم جهلا كذبتم ألم تروا أخاها سفيها بعدما كان حالما

ينكر عليهم عدم تأكدهم من فعل الخمر بشاربها، وكيف يصبح سفيها بعد حلمه ومجنونا بعد تعقله.

ومثله قوله:

ولست إلى الصهباء ما عشت عائدا ولا تابعا قول السفيه المعاند

وكيف وقد أعطيت ربى مواثقا أعود لها، والله ذو العرش شاهدى

ينكر على نفسه العودة إلى شرب الخمر بعد أن أخذ على نفسه عهودا لله ومواثيق ألا يعود إليها.

ومثله قوله:

فإن ابنة الحبر اليهودى تيمت فؤادى فهل لى من سمية زاجر

يتمنى عن طريق الاستفهام أن تكون له سلوى عن حبها.

ومثله قوله:

ألم ترنى ودعت ما كنت أشرب من الخمر إذ راسى لك الخير اشيب

ينكر على صاحبه عدم تصديقه واقتناعه بابتعاده وإقلاعه وتوديعه شرب الخمر. هذه الأمثلة فى مجملها، وغيرها كثير ترينا كيف كان أبو محجن يفضل الأسلوب الإنشائى على الخبرى، وكيف كان يلجأ إلى الأسلوب الخبرى ولكل منهما ما يتطلبه من الحال والمقام، وقد استخدم فى أسلوبه الخبرى ما يؤكد الحقائق، ومنه قوله:

أعطى السنان غداة الروع نحلته وعامل الرمح أرويه من العلق

وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض تنفى المسابير بالإزياد والفهق

عف الإياسة عما لست نائله وإن ظلمت شديد الحقد والحنق

وتأكيد الحقائق بذكر الصفات يأتى عن طريق الأسلوب الخبرى، وهو مطلوب فى غرض الفخر والحماسة.

ومن صور تلوين الأسلوب فى شعر أبى محجن تعريف الألفاظ مرة وتنكيرها مـرة أخرى لا لمجـرد التلوين، بل لمقتضى بـلاغى؛ فنجده فى قوله:

إنـى أكـر على الأولى إذا فـزعـوا يومـا وأحـبس تحت الراية الفـرسـا

فقوله «الأولى» يعنى بها أولى الخيل وهى المقـدمة، وخصها بالذكر والتعريف لأن نخبة الكتيبة فيهـا. وقوله «الفرسا» معرف ليدل على فرسه التى جاهد عليها. وفى قوله:

عـمى الذى اهدى لكسـرى جـيـاده لدى البـاب منهـا مـرسل ووقـوف

ساق المسند إليه معرفا بالموصـولية لتمكين الغرض المسوق به الكلام وهو الفخر بعمه، حيث قبل كـسرى منه الجياد الواقفة والمرسلة ولم يقبل من غيره شيئا.

ونجده يقول:

وأهجـر الفـعل ذا حـوب ومنقـصـة وأترك القـول يدنينى من الرهق

نكر كلمـة «حوب» وكلمـة «منقصـة» ليفـيد هجـران كل الأفـعال القبيحة فـالتنكير يفيد العموم والشمول على غـرار قوله تعالى: «إنه كان حوبا كبيرا».

ونجده فى مثل قوله:

إذا مت فـادفنى إلى جنب كـرمـة تروى عظامى بعد مـوتى عـروقـهـا

نكر كلمة «كـرمة» ليفيد تخـصيص الكرمة التى يتخـذ منها العنب ليعصر فيكون خمرا.

وفى قوله:

إلى فتية بالطف نيلت سراتهم وغودر أفراس لهم ورواحل

استخدم كلمة «فتية» منكرة ليفيد التكثير والتعظيم.

وفى قوله:

أتوب إلى الله الرحيم فإنه غفور لذنب المرء ما لم يعاود

استخدم كلمة «غفور» ليفيد عموم المغفرة للتائبين.

ونجده فى قوله:

وقد تقوم على راسى مغنية فيها إذا رفعت من صوتها غنج

قد استخدم كلمة «مغنية» نكرة، ليفيد العموم والشمول لا مغنية بعينها. ومن الصور الأسلوبية الجميلة فى شعر أبى محجن الثقفى الحذف لغرض بلاغى فى قوله:

وانا رفدهم فى كل يوم فإن غضبوا فسل رجلا عريفا

حذف المضاف أى «وأنا أصحاب رفدهم»، على غرار قوله تعالى: «واسأل القرية». ومنه قوله:

وللكأس والصهباء حق منعم فمن حقها أن لا تضاع حقوقها

والتقدير: منعم صاحبه.

ومن الصور الأسلوبية فى شعر أبى محجن حرصه على التوكيد فنجده فى قوله:

الحمد لله نجانى وخلصنى من ابن جهراء والبوصى قد حبسا

قال: نجانى وخلصنى والمعنى واحد يريد من ذلك التوكيد؛ فقد نجاه الله وخلصه من حبسه ونفيه بعيداً عن إخوانه المجاهدين فى سبيل الله على غرار من قال: أوجعته وآلمته. وإن كان هذا جيداً فى النثر فليس بجيد فى الشعر؛ لأن من حق الشعر أن تكون ألفاظه كالوحى ومعانيه كالسحر. وقوله فى البيت بعده:

من يركب البحر والبوصى معترضاً إلى حضوضى فبئس المركب التمسا

فهو مثل الأول؛ فركوب البحر ينبئ عن ركوب البوصى.

وفى قوله:

ساتركها لله ثم اذمها واهجرها فى بيتها حيث تشرب

نجده استخدم «أتركها» وأتى بعده بقوله: «أهجرها» والثانى هو الأول وما ذاك إلا ليؤكد عزمه على تركها وعدم العودة إليها. وفى قوله:

إن كانت الخمر قد عزت وقد منعت وحال من دونها الإسلام والحرج

قد أكد «عزت» بقوله «منعت».

ومن الصور الأسلوبية الرائعة فى شعر أبى محجن ما يسمى بالاعتراض وذلك للتوضيح والتأكيد والاحتراس ومن هذا قوله:

عف الإياسة عما لست نائله وإن ظلمت شديد الحقد والحنق

يقول: إنى عاقل لا أطمع فيما لا أناله؛ بل أيأس منه يأسا عفا لا قنوط معه ولا كفر، وذلك أن من الناس من إذا فاته الشىء قنط وكفر، فاعترض بقوله: «وإن ظلمت» بين الجملتين الخبريتين، ومنه قوله:

قد يقتر المرء يوما وهو ذو حسب وقد يثوب سوام العاجز الحمق

فقد اعترض بقوله: «يوما» لأن الافتقار غير ثابت، وليست له صفة الدوام؛ فقد يصيب الغنى كما يصيب الفقير.

ومنه قوله:

قد يكثر المال يوما بعد قلته ويكتسى العود بعد الجدب بالورق

اعترض بقوله: «يوما» وبقوله: «بعد الجدب» بين مفعولى يكتسى فالعود بين حالين جدب واكتساء بالورق، وكلاهما لا يدوم.

ومثله قوله:

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفننى بالفلاة فإننى أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

فقد اعترض بقوله: «بعد موتى» ليفيد حرصه على شربها بعد موته كحرصه على ذلك حال حياته، واعترض بقوله: «إذا ما مت» فى البيت الثانى ليفيد أن خوفه منصب على ما بعد الموت، أما فى حياته فهو يشربها بإرادته ولا خوف من منعها عنه، وبين البيتين إقواء؛ فقد غير حركة حرف الروى بين الضم والفتح. ومثله قوله:

ألا سقنى يا صاح خمرا فإننى بما أنزل الرحمن فى الخمر عالم

فقد اعترض بقوله: «بما أنزل الرحمن فى الخمر» بين إن وخبرها «عالم» ليدل على أهمية هذا التحريم وأنه من قبل الرحمن عز وجل، وعلى إصرار رغم علمه بالتحريم - على الشرب.

ومثله قوله:

ولله عهد لا أخيس بعهده لئن فرجت أن لا أزور الحوانيا

فقد اعترض بقوله: «لا أخيس بعهـده» ليؤكد حفاظه على عهد الله وعزمه بعد ذلك على ترك شرب الخمر.

ومن صـور الأسلوب الجمـيلة فى شعـر أبى محـجن الثقـفى تنوع ترتيب الجملة والعبارة بين التقديم والتأخير، ففى قوله:

انى تسـدت نحـونا ام يوسف ومن دون مسـراها فيـاف مـجاهل

قدم الخـبر وهو قوله: «ومن دون مـسراها» على المبتـدأ وهو قوله: «فياف» ليعبر عن بعد المسافة بينهما، ومدى المعاناة فى الوصول إليها.

وفى قوله:

واضـحى ابو جـبـر خـلاء بيـوته بما كان يعـفـوها الضـعـاف الأرامل

قدم التمييز وهو قوله «خـلاء» على المميز وهو قوله: «بيوته» ليؤكد خلوها من الخير بعـد عمرانها به، وهذا يؤكد حـجم المهانة التى أصابت هؤلاء القوم بعد هزيمتهم من الأعداء.

ومثله قوله:

ومـا رمت حتى خـرقـوا برمـاحـهم ثيـابى وجـادت بالدمـاء الأباجل

قدم الجـار والمجرور وهو قوله: «برمـاحهم» على المفـعول به وهو قوله: «ثيـابى» ليثبت بذلك مدى صـبره وشجاعـته فى مواجهـة الأعداء الذين أكثـروا الطعن فيه، ثم سـاق دليلا على ذلك فى قـوله: «وجادت بالدماء الأباجل» وفـيه قدم أيضـا الجار والمجرور وهو قـوله: «بالدماء»، على الفاعل وهو قوله: «الأباجل» ولا تستقيم للبيت بلاغته وفصاحته إلا بهذا التقديم، ولا يخفى ما فى البيت من كناية لطيفة.

ومن الصور الأسلوبيـة الجميلة فى شـعر أبى محجن الثـقفى والتى ظهرت بـوضوح فيـه أسلوب التكرار يقصـد إليه الشـاعر قـصدا ليـؤكد مضمونا أو ليجمل معنى، وكما أن التكرار يحمل موسيقية لفظية، «فمما لا شك فيـه أن هناك ارتباطا بين أصوات الحـروف العربية ومـا تعنيه من معان، وفقا لما اكتسبته تلك الأصوات من موسيقية، إما بطبيعتها الصوتية المهمـوسة أو الصفيـرية أو الجهرية، وإما نتـيجة لحسن اسـتعمالهـا، وما أصـبح لهـا من دلالة فى الموروث الشـعـرى، ومـا أصـبح لتكرارها من معان»(١).

ويعنينا هنا تكرار الشـاعر للكلمة والعـبارة فهـذا التكرار وسيلة من الوسائل اللغـوية، التى يمكن أن تؤدى دورا تعبيـريا واضحا فى القصـيدة الشعـرية، فتكرار لفظـة ما أو عبـارة ما يوحى بشكل أولى بسـيطرة هذا العنصر المكرر والحاجة على فكر الشاعـر أو شعوره، أو لا شعوره، ومن ثم فهو لا يفتأ ينبثق فى أفق رؤياه من لحظة إلى أخرى.

«والشاعـر يكرر اللفظ فى البيت الواحـد أو فى الأبيات المتلاحـقة لتأكيـد المعنى الذى يسوقه لإظهاره وكشـفه، ولا شك أن فى هذا التكرار استعذابا ولذة يستشعرها الشاعر»(٢).

ومن تكرار الكلمة فى شعر أبى محجن الثقفى قوله:

إن الكرام على الجيـاد مـقـيلهم فـنرى الجيـاد لأهلهـا وتعطرى

---

(١) عناصر الإبداع ص: ٢٠٢، ٢٠٣ .

(٢) السابق ذاته ص: ١٤٦ .

حيث كرر كلمة «الجياد» وكان يمكن الاستغناء عنها فى الشطر الثانى، ولكنه كررها بالاسم الظاهر ولم يستغن عنها بالضمير مثلا ليؤكد أن الجياد خاصة بالأبطال الكرام من الرجال لا من النساء.

ومنه قوله:

يا ضل ضل المنايا ما تركن لنا عزا نبوء به ما هدل الورق

فقد كرر لفظة «ضل» جريا على المثل، يريد ما أضل المنايا، ومثله قول جذيمة الأبرش: «يا ضل ما تجرى به العصا». والعصا فرس جذيمة، ركبها مولاه قصير ونجا، وتورط جذيمة فقال: ما أضل جريها؛ لأنها تجرى بغير صاحبها. ويقال: فلان ضل ابن ضل، وقل ابن قل. إذا لم يعرف أصله»(١).

ومن أمثلة التكرار قول أبى محجن:

الا سقنى يا صاح خمرا فإننى بما أنزل الرحمن فى الخمر عالم

وجد لى بها صرفا لأزداد مأثما ففى شربها صرفا تتم المآثم

كرر لفظة «خمرا» ولم يستغن عنها بالضمير مثلا، وذلك ليؤكد أنه يشرب الخمر التى نزل فيها التحريم، كما كرر لفظة «مأثم» ليؤكد أيضا أن شرب الخمر يزيده إثما على إثم.

ومن الصور الأسلوبية الجميلة فى شعر أبى محجن الثقفى ما يسميه البلاغيون «التتميم» وقد عرفه ابن المعتز بأنه: «اعتراض كلام فى كلام، ولم يتم معناه، ثم يعود المتكلم فيتمه»(٢) ومن أمثلته فى شعر أبى محجن قوله:

---

(١) انظر الديوان ص: ٢٩ . (٢) عناصر الإبداع ص: ١٦٧ .

ألم ترنى ودعت مـــا كنت أشـــرب من الخمر إذ رأسى لك الخير-أشيب

فأتى بقولــه: «لك الخير» بين «رأسى»، وهو مبـتدأ و«أشيب» وهو خبره، والجملة دعائية؛ يدعو لمخاطبه بالخير.

ومثله قوله:

هلم ســـلاحى - لا أبا لك - إننى أرى الحـــــرب لا تـزداد إلا تماديا

فأتى بقوله: «لا أبا لك» أى: افتقدتك إن لم أشارك بك فى الحرب التى تزيد ضراوة على المسلمين واعترض به بين: «هلم سلاحى»، وقوله: «إننى أرى الحرب».

ومثله قوله:

لقـد علمت ثقـيف غـيـر فـخـر- بأنا نحن أجـــودها ســـيـــوفـــا

فعلى الرغم من أنه فى مـقام الفخـر إلا أنه يتواضع ويقول: «غـير فـخر» ويعـترض به بـين «علمت ثقيف»، وقـوله: «بأنا نحن أجـودها» والجملة سدت مسد مفعولى علم؛ لصيانة نفسه من الغرور.

ومثله قوله:

ولست إلى الصهباء ما عشت عائدا ولا تابعـا قـول السـفـيـه المعـاند

فاعترض بـقوله: «ما عشت» بين اسم ليس وخبرها «عـائدا» ليثبت أنه لن يعود إليها طول حياته، حتى لو أغراه السفيه المعاند.

فتمام الكلام يأتى بعد هذا الاعـتراض؛ لأن ما بعده تمام ما قبله فى المعنى.

ومن ألوان الجمال الأسلوبى فى شعر أبى محجن «الحوار» ونجده فى قوله:

ألم ترنى ودعت مـــا كنت أشـــرب ... من الخمر إذ رأسى لك الخير أشيب

وكنت أروى هامـــتى من عـــقـــارها ... إذا الحـــد مـــأخـــوذ وإذ أنا أضـــرب

فلمـــا دروا عنى الحـــدود تركـــتـــهـــا ... وأضمـــرت فيها الخير والخير يطلب

وقـــال لى الندمـــان لما تركـــتـــهـــا ... أألجـــــد هـذا منك أم أنت تلـعب

وقـــالوا عـجـيب تركك اليـوم قـهـوة ... كـــأنى مـــجنون وجلدى أجـــرب

ســـأتركـــهـــا لله ثم أذمـــهـــا ... وأهجـرها فى بيتـهـا حيث تشـرب

فقد استخدم الحوار الشعرى لتجسيد الصورة وتحريكها ونقل الحديث وتناقله بينه وبين رفاقه فى قوله: «ألم ترنى»، «وقال لى الندمان»، وقالوا عجيب».

ومثل ذلك نجده فى قوله:

يقـــول أناس اشـــرب الخـمـــر إنهـــا ... إذا القـــوم نالوها أصـــابوا الغنائمـــا

فـقلت لهم جـهـلا كـذبتم ألم تروا ... أخـاها سـفـيهـا بعـدمـا كـان حـالمـا

واضحى وامسى مستخفا مهيما ... وحـسـبك عـارا أن ترى المرء هائمـا

دار الحديث عن شرب الخمر وتركهـا فى صورة حوار شعرى تجسد فى قوله: «يقول أناس»، «فقلت لهم»، «ألم تروا»، «وحسبك عارا».

ونجد ذلك فى قوله:

صاحبا سوء صحبتهما صاحبانى يوم أرتحل

ويقولان ارتحل معنا وأقول إننى ثمل

إننى باكرت مترعة مزة راووقها خضل

دار الحديث عن الرحلة والارتحال، وكيف أقعدته الخمر عن الارتحال، وذلك فى صورة حوار شعرى بينه وبين صاحبيه، فى قوله: «يقولان» و«أقول».

ومن روافد التصوير الأدبى الموسيقى، والموسيقى فى شعر أبى محجن ذات شقين أو لونين كما هى فى سائر الشعر العربى، ولا خلاف فى أن الموسيقى هى أبرز الأدوات البنائية للشعر، وهى التى تفرقه عن سواه من فنون القول، وتنشأ الوسيقى من الوزن الشعرى، وقد عد ابن رشيق الوزن أعظم أركان الشعر وأولاها به خصوصية.

وللشعر العربى الموزون موسيقى تحدث فى النفس طربا واهتزازا، كما يقول ابن طباطبا: «وللشعر الموزون إيقاع، يطرب الفهم لصوابه، ويرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه».

والموسيقى هى جزء من بنية الشعر، وليست زينة منفصلة عنه تضاف إليه فى أى وقت؛ بل هى من أقوى وسائل الإيحاء، وأقدرها على التعبير عن خفايا النفس ودفائنها(١).

وتتمثل الموسيقى الشعرية فى موسيقى الوزن والقافية، وتلك هى الموسيقى التى يمكن أن نطلق عليها «موسيقى خارجية»، تعمل معها موسيقى أخرى «تحكمها مجموعة من القيم الصوتية، وتتجلى فى

---

(١) انظر عناصر الإبداع الفنى ص: ١٩٣ .

مقومـات إيقاعية فى بنية الشـعر، تشمل البحر والوحـدة اللغوية، سواء أكانت جمـلة أم مجموعة مـؤتلفة من الحروف ذات الجـرس المميز»[1]. وتسمى الأخيرة موسيقى داخليـة، والنوعان يتفاعلان ويتآزران فى تكامل بنائى، ينتج عنه إيحاء شعورى مؤثر.

لقد سلك أبو محجن الثقفى فى شعره سبيل الشعراء السابقين فنظم شعـره الموجود فى الديوان فى بحـور أربعة يحـتل البحر الطـويل المرتبة الأولى بينها؛ إذ نظم فيه ثمانى قصائد، يليه البحر البسيط؛ فقد نظم فيه أربع قصائد، يليه البحر الكامل؛ فقد نظم فيه قصيدتين، ثم يليها جميعا البحر الوافر؛ فـقد نظم فيه قصيـدة واحدة. وبالزيادات التى وجدت من شعره فى مـصادر أخرى غيـر الديوان وقد أثبتها مـحقق الديوان فى ذيل الديوان يبلغ عدد قصائد البحر الطويل تسع قصائد وقصائد البحر الكامل ثلاث قصـائد، وقصائد البـحر الوافر ثلاث قـصائد، ونظم فى الزيادات على البحر المديد قصيدتين.

ومن هذه الإحصائية يتبين لنا أن البحر الطويل يحتل المرتبة الأولى، وهذا أمر طبـيعى درج عليه الشـعراء العـرب منذ الجاهلية؛ فـقد توصل الدارسون المحدثون لموسيقا الشعر العربى إلي أن بحر «الطويل» يجىء فى المرتبة الأولى، يليه «الكامل» ثم «الوافر» ثم «البسيط» وأن ليس بين بحور الشعر العربى ما يضارع بحر «الطويل» فى نسبة شيوعه؛ إذ جاء ما يقرب من ثلث هذا الشعر فى وزنه»[2].

---

(١) السابق ذاته ص: ١٩٤ .

(٢) موسيقى الشعر ص: ٥٩ د/ إبراهيم أنيس الطبعة الثالثة الأنجلو المصرية ١٩٦٥م.

وتمثل قصائد بحر «الطويل» فى شعر أبى محجن أكثر من ثلث شعره كله، وقد ناسب نظمه الشعر فى هذه البحور، وفى مقدمتها بحر الطويل ناسب وجدانه وعواطفه الجياشة، وغيرها مما يحتاج من الشاعر إلى طول نفس وتمهل وأناة. فالشاعر قد انغمس فى شرب الخمر، وحد فيها مرارا، ونفى إلى جزيرة حضوضى فى البحر لإصراره على الشرب، ثم فر هاربا حتى لحق بسعد بن أبى وقاص وكان يومئذ بالعراق فعلم عمر بأمره، فكتب إلى سعد يأمره بحبسه، فحبسه سعد فى قصره، وحدث أن وقعت موقعة القادسية، واشتد القتال وأبو محجن ينظر من محبسه على ساحة القتال، فطلب من أم ولد سعد أن تساعده على الاشتراك فى المعركة فخرج وقاتل وعاد إلى سجنه وقيده بعد النصر فلما علم سعد بخبره، قال له: لن أحدك أبدا. وجل ما قال من شعر دار حول حماسته وفخر وشجاعته، وشربه الخمر وتوبته منها، ورثاء إخوانه؛ فكان بحر الطويل والكامل والوافر والبسيط خير معين له على التعبير عن تلك العواطف والوجدانات الجياشة فانظر إليه يقول يوم الجسر قصيدته التى نظمها فى بحر الطويل:

انى تسدت نحونا أم يوسف ... ومن دون مسراها فياف مجاهل

إلى فتية بالطف نيلت سراتهم ... وغودر أفراس لهم ورواحل

وأضحى أبو جبر خلاء بيوته ... بما كان يعفوها الضعاف الأرامل

وأضحى بنو عمر ولدى الجسر منهم ... إلى جامد الأبيات جود ونائل

وما لمت نفسى فيهمُ غير انها ... إلى أجل لم يأتها وهو عاجل

وما رمت حتى خرقوا برماحهم ... ثيابى وجادت بالدماء الأباجل

وحـــتى رأيت مـــهـــرتى مـــزوئرة لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل

ومـــا رحت حـــتى كنت آخـــر رائح وصـرع حـولى الصـالحـون الأمـاثل

مـررت على الأنصـار وسط رحـالهم فـقلت لهم هل منكم اليـوم قـافل

وقـــريت رواحـــا وكـــورا ونمرقـــا وغـــــودر فـى أليـس بـكـر ووائـل

ألا لـعـن الـلـه الـذيـن يـســـــرهـم ردای ومـــا يدرون مـــا الله فـــاعل

فهذه العـواطف الجياشة تارة فى الفخر والحـماسة، وتارة فى رثائه لأحبتـه الذين اشتركوا مـعه فى الحرب، وقتلهم الأعـداء، وتلك البيوت التى صارت خلاء بعد أن كانت عامرة يغشاها الناس من كل مكان ينهلون من كرمهم. كل هذا لا يناسـبه سوى بحر الطويل لينسج عليـه ما قال، ولا تقوم البحور المجزوءة هذا المقام، ولا تفى له بما أراد.

وقال فى قصيدة بحر البسيط:

الحـــمـــد لله نجـــانى وخلصنى من ابن جهراء والبوصى قد حبسا

من يجشم البحر والبوصى مركبه إلى حضوضى فبئس المركب التمسا

أبلغ لديك أبا حـفص مـغلغلة عـبـد الإله إذا مـا غـار أو جلسـا

أنى أكـر على الأولى إذا فـزعـوا يومـا، وأحبس تحت الراية الفرسـا

أغشى الصياح وتغشانى مضاعفة من الحديد إذا ما بعضهم خنسـا

يرسم لنا صورة لشـجاعتـه ويفخر بحـماستـه وكيف هداه الله إلى الحيلة التى فـر بها من النفى فى جـزيرة حضوضى ليلحق بسـعد بن أبى وقاص قائد جيش المسلمين؛ لأن وجوده هناك بينهم مجاهدا فى سبيل الله أفضل من حبسه، ويريد أن يعلم أمير المؤمنين عمر ـ رضى الله عنه ـ بأنه

يكر على الأعداء، ويجيس فرسه للجهاد، ويغشى الحروب دون خوف أو وجل من سيوف الأعداء أو رماحهم فى وقت يجبن فيه البعض من ضعاف النفوس.

وما كان لأبى محجن أن يقول ما قال، ويعبر عما أراد من عواطف ووجدانات فى هذه القصيدة، ويعبر عن ذلك بموسيقية مؤثرة إلا من خلال هذا البحر البسيط التام، ولا يسعفه بحر مجزوء أو ذو وزن خفيف، فكان أبو محجن موفقا كل التوفيق فى اختيار هذا البحر.

ويضم إلى الوزن العروضى الذى نسج الشاعر عليه قصائده فى استكمال الموسيقى الخارجية عنصرا آخر هو قسيم الوزن فى الشعر، هذا العنصر هو ما عناه ابن رشيق بقوله: «القافية شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعرا حتى يكون له وزن وقافية» فما القافية؟

يقول الخليل بن أحمد: «القافية هى آخر حرف فى البيت إلى أول ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذى قبل الساكن».

وللقافية أهمية كبرى فى الشعر العربى التقليدى؛ فهى تمثل قرار البيت المحقق للإيقاع، المتحكم فى موجات النغم المتتابعة، فهى الضربة الأخيرة التى تثبت عندها كل لحظة موسيقية.

والقافية بجانب هذا هى آخر ما يطرق السمع من البيت، وعندها يقف الشاعر قليلا، تاركا هذه القافية تعمل عملها فى النفس وأهم شرط لجودة القافية هو أن تكون متمكنة فى مكانها من البيت، ومعنى تمكن القافية: أن معنى البيت يتطلبها، ولفظه ينتظرها، وهذا هو ما عناه

المرزوقى بقـوله: «وأما القـافـية فـيجب أن تكون كـالموعـود به المنتظر، يتشوقها المعنى بحقه، واللفظ بقسـطه وإلا كانت قلقة فى مقرها. مجتلبة لمستغن عنها»(١).

بنظرة متـأنية فى شعر أبى مـحجن الثقـفى نجده يقول فى قصـيدته القافية:

لا تسـألى الناس عن مـالى وكثـرته وسـائلى القـوم عن دينـى وعن خلقى

فلفظ «دينى» قبل القافية يتطلب القافية فى قوله: «خلقى».

ونجده يقول:

قـد يكثـر المال يومـا بعـد قلتـه ويكتسى العود بعد الجدب بالورق

فلفظ «يكتـسى العـود» قـبل القافـيـة يتطلب القـافيـة فى قـوله: «بالورق».

ونجده يقول:

إذا مت فـادفنى إلى أصل كـرمـة تروى عظامى بعد مـوتى عـروقـها

فلفظ «عظامى» قبل القافية يتطلب القافية فى قوله: «عروقها».

وقوله:

إلى فـتـيـة بالطف نيلت سـراتهم وغـــودر أفـــراس لهـم ورواحل

فلفظ «أفراس» قبل القافية يتطلب القافية فى قوله: «ورواحل»

وقوله:

فـقلت لهم جـهـلا كـذبتم ألم تروا أخـاها سـقـيـهـا بعـدمـا كـان حـالما

---

(١) انظر عناصر الإبداع ص: ١٩٧، ١٩٨ .

فلفظ«سفيها» قبل القافية يتطلب القافية فى قوله: «حالما».

وقوله:

وقـال لى النـدمـان لما تركـتـهـا ألجـــد هـذا منك أم أنت تلـعب

فلفظ «ألجد» قبل القافية يتطلب القافية فى قوله: «تلعب». فالقافية فى شعـر أبى محجن قافـية متـمكنة، عذبة اللفظ، سهلة المخـرج. وقد أقوى أبو محجن فى شعره وذلك فى قوله:

إذا مت فـادفنى إلـى أصل كـرمـة تروى عظامى بعد مـوتى عـروقـهـا

ولا تدفنـنـى بالفـــلاة فـــإننى أخـــاف إذا مـا مت أن لا أذوقـــهـا

والإقواء هو المخالفة بين حـركة حرف الروى فى القصيدة «فـالقافية فى البـيت الأول هى قوله: «عـروقُهـا» وهو مـرفوع لأنه فـاعل والرفع علامته الأصلية الضمة، والقافية فى البيت الثانى هى قوله: «أذوقها» وهو فعـل مضـارع منصوب بأن قـبله وعلامـة النصب الأصلية هى الـفتـحة فتغيرت حركة حرف الروى من الضمة إلى الفتحة.

وتنشأ الموسـيقى الداخلية وتنبع من مصـادر متعددة؛ فـقد تأتى من تآلف الألفـاظ وتواليهـا وتعاقـبهـا وهذا مـا يحدث تناغـما داخليـا فى القصيدة، وقد تأتى من استكمال النـص لموسيقاه الخارجية إليك ألوانا من الموسيقى الداخلية:

التصـريع: هو «استـواء آخر جزء فى صـدر البيت وآخـر جزء فى عجزه فى الوزن والروى والإعراب. وقد عرفه ابن رشيق بأنه: «ما كانت عروض البيت تابعة لضربه، تنقص بنقصه وتزيد بزيادته»(١).

---

(١) السابق ذاته ص: ٢٠٦ .

وللتصـريع قيمـة موسيقـية بالغة التـأثير، وعنى أنه يعرف الشـاعر السامع بإيقاع البيت الأول قبل تمامه.

ويقول ابن الأثيـر: «وفائدته ـ يعنى التـصريع ـ فى الشعـر أنه قبل كمال البـيت الأولى فى القصيدة تعلم قـافيتها، ومـعلوم أن البيت الأول بمثابة المفتاح الموسيقى للحن؛ لأنه الهـادى والمتبع فى سائر أبيات القصيدة وزنا ورويا»(١).

يقول أبو محجن الثقفى:

ألم ترنى ودعت مـــا كنت أشـــرب من الخمر إذ رأسى لك الخير أشيب

فقد ظهر التصريع فى قوله: «أشيب» و«أشرب» فقافية البيت علمت من عروضه قبل تمام البيت، وكذلك حرف الروى، وزيادة على ذلك فقد أجاد أبو محـجن عندما استخدم الجناس بين اللفظين، فـراد الحسن حسنا حيث اجتمع التصريع مع الجناس.

ومن صور الموسيقى التى تزيد الشعر حسنا ورعة «التنوين» وهو أداة من أدوات التطريب اللغوى، وله قيمة تدركـها الأذن، وقد عرفه العلماء بأنه «نون ساكنة زائدة تلحق الآخـر لفظا لا خطا» فهو مشـترك مع حرف النون فى بعض الخصائـص، فإذا وليته الحروف التـالية وهى: الباء واللام والميم والواو والياء والراء والنون، دون أن يوقف عليه قـبلها فإنه فى هذه الحالة تخـتفى النون السـاكنة، ويبدو صـوت جديد فيـه شىء من الغنة، وامتداد نغمى للصوت القادم، وهذا مـا سماه علماء اللغة «الإدغام»، أما إذا وقف عليه قبلها فيظل على حاله من الظهور»(٢).

---

(١) المثل السائر جـ ١ ص: ٣٨٨ . (٢) عناصر الإبداع ص: ٢٠٨ .

ونجد التنوين فى قول أبى محجن الثقفى:

لقد علمت ثقيف غير فخر　　بأنا نحن أجودها سيوفا

وأكثرها دروعا ضافيات　　وأصبرها إذا كرهوا الوقوفا

وأنا رفدهم فى كل يوم　　فإن غضبوا فسل رجلا عريفا

ظهر التنوين فى الكلمات «ثقيف»، «فخر»، «دروعا»، «سابغات»، «يوم»، «رجلا». فقد أراد إظهار هذه الكلمات وتكثيفها فى الأسماع، وتنبيه الحواس إليها، ليشد انتباه السامعين بنيره القوى، وصمته المفهوم، وتلك هى الصورة الأولى للتنوين. أما إذا أراد الربط بين الكلمات والجمل أتى بالتنوين مدغما، وقد يكون التنوين مزدوجا خفيا ليتم له المعنى الذى أراده، يقول أبو محجن:

أتوب إلى الله الرحيم فإنه　　غفور لذنب المرء ما لم يعاود

ولست إلى الصهباء ما عشت عائدا　　ولا تابعا قول السفيه المعاند

وكيف وقد أعطيت ربى مواثقا　　أعود لها، والله ذو العرش شاهدى

ساتركها مذمومة لا أذوقها　　وإن رغمت فيها أنوف حواسدى

نجد التنوين فى الكلمات: «غفور»، «عائدا»، «تابعا»، «مواثقا»، «مذمومة» تنوين ظاهر، والغرض هو تكثيف الكلمات فى الأسماع.

وقوله:

وقد كنت ذا مال كثير وإخوة　　فأصبحت منهم واحدا لا أخا ليا

فإن مت كانت حاجة قضيتها　　وخلفت سعدا وحده والأمانيا

فـالتنوين فى الكلمـات: «مـال»، «كثـيـر»، «إخوة»، «واحـدا»، «حاجة»، «سعدًا» تنوين ظاهر لتكثيف الألفاظ فى الأسماع. ومنه الخفى فى كلمة «كثير»، وقد انتقل منه الشاعر إلى الظاهر فى كلمة «إخوة» فهذا تنوين مزدوج، حـيث انتقل الشاعر مـن التنوين الخفى إلى الظاهر؛ لأن الشاعر لا يريد أن يقطع الكلام، ويقف به عند كلمة «كثير»؛ بل يريد أن يصل الكلام ليتم المعنى على الوجه الذى يريـده، فهو يريد أن يقول: إنه لم يكن ذا مال كثـير فقط، بل كان ذا إخوة كثيـرين أيضا فوصل الكلام مع التنوين الخفى وقطعه عند التنوين الظاهر ليصل إلى ما أراد أن يبرزه، لذا حسن الوقوف عند كلمة «إخوة».

ومن صور الجمـال الموسيقى فى شعر أبـى محجن «الجناس»، وهو كما عرفه النقاد: «أن يورد المتكلم كلمتين، تجانس واحدة منهما صاحبتها فى تأليف حروفها، ولكنهما تختلفان فى المعنى»(١).

وخاصيـة الجناس تكمن فى تكرار حروف بعينها، مما يولد موسـيقا داخل النص الشعرى، ونجد ذلك فى قول أبى محجن:

من يركب البحر والبوصى معترضا إلى حضوضى فبئس المركب التمسا

فقـد جانس بين «يركب» الفعل، «المركب» الاسـم مما أعطى البيت جرسا موسيقيا جميلا.

وفى قوله:

تمنيت أن ألقـاهمـا وتمنتـا فلما التقينا استحيتا من مناهما

بـكـت هـنه وانـهـل دمـع هـنه وفاضت دموعى فى عراض بكاهما

---

(١) عناصر الإبداع ص: ٢٠٥ .

فقد جانس بين اللفظين: «تمنيت»، «مناهما» وجانس بين: «بكت»، «بكاهما» مع الاختلاف بين المعانى.

وفى قوله:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها

جانس بين اللفظين: «مت»، «موتى» وفيه تلوين موسيقى جميل.

وفى قوله:

وما رحت حتى كنت آخر رائح وصرع حولى الصالحون الأمائل

جانس بين اللفظتين: «رحت»، «رائح» وفيه جمال موسيقى واضح ورائع.

وفى قوله:

حبيسا عن الحرب العوان وقد بدت وإعمال غيرى يوم ذاك العواليا

جانس بين اللفظتين «العوان»، «العواليا» وهذا جناس ناقص، لاشتراك اللفظتين فى بعض الحروف وهى: «العوا».

وتتجلى الموسيقى الداخلية للنص الشعرى فى اللفظ وماله من نبرات وصوت، وما تحمله تلك النبرات والأصوات من المشاعر، ومن تآلف الألفاظ وتجاورها.

ومن ألوان الموسيقى الداخلية التكرار تكرار الكلمات أو الحروف فمن تكرار الحروف قول أبى محجن الثقفى:

وما رمت حتى خرقوا برماحهم ثيابى وجادت بالدماء الأباجل

وحتى رأيت مهرتى مزوئرة لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل

وقريت رواحا وكورا ونمرقا وغودر فى اليس بكر ووائل

فقد كرر حرف «الراء» ووزعه على أجزاء كل بيت منها، توزيعا منسجما متوازنا، هيمن على الموسيقى الداخلية تماما.

ومن هذا النوع قول أبى محجن الثقفى:

ألا سقنى يا صاح خمرا فإننى　　بما أنزل الرحمن فى الخمر عالم

وجد لى بها صرفا لأزداد مأثما　　ففى شربها صرفا تتم المآثم

هى النار إلا أننى نلت لذة　　وقضيت أوطارى وإن لام لائم

فقد كرر حرف «اللام» ووزعه على أجزاء كل بيت منها توزيعا منسجما متوازنا هيمن على موسيقى الأبيات.

ومن تكرار الكلمات فى شعر أبى محجن الثقفى قوله:

إن الكرام على الجياد مقيلهم　　فنرى الجياد لأهلها وتعطرى

والشاعر يكرر الكلمة فى البيت الواحد أو الأبيات المتلاحقة لتأكيد المعنى الذى يسوقه وإظهاره وكشفه، ولا شك أن فى هذا التكرار استعذابا ولذة يستشعرها الشاعر والقارئ مما يقوى الموسيقى الداخلية للنص الشعرى.

ومنه قوله:

لا تسألى الناس عن مالى وكثرته　　وسائلى القوم عن دينى وعن خلقى

وتكرار تسألى وسائلى يعطى البيت جمالا موسيقيا رائعا.

ومنه قوله:

وأطعن الطعنة النجلاء عن عرض　　تنفى المسابير بالإزياد والفهق

وقوله:

واغشى الصياح وتغشانى مضاعفة من الحديد إذا ما بعضهم خنسا

وقوله:

يوم بيوم ابى جبر وإخوته والنفس نفسان منها الهول والشفق

فقد كرر «يوم بيوم» والنفس نفسان، وأضاف إلى ذلك الجمال الموسيقى الجميل فى: الهول والشفق، ومثل ذلك واضح فى شعره ومنه قوله:

إلى فتية بالطف نيلت سراتهم وغودر افراس لهم ورواحل

ففيه تقسيم جميل فى: أفراس لهم ورواحل مما يفيد التنويع الذى يكثف الصورة الشعرية.

ومنه قوله:

واضحى بنو عمرو لدى الجسر منهم إلى حامد الأبيات جود ونائل

والتقسيم فى: جود ونائل، وفيه تنويع جميل. وهذا مأخوذ من قول النابغة(١):

وغدر بالجولان حزم ونائل

ومثله قول أبى محجن:

وقربت رواحا وكورا ونمرقا وغودر فى اليس بكر ووائل

ومثله قوله:

عمى الذى اهدى لكسرى جياده لدى الباب منها مرسل ووقوف

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى تحقيق شكرى فيصل ص: ١١٩ .

ومن ألوان الجمال فى الموسيقى الداخلية فى شعر أبى محجن الثقفى «الطباق» الذى يسميه ابن الأثير «المطابقة» حيث يقول: وقد أجمع أرباب هذه الصناعة على أن المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشىء وضده كالسواد والبياض، والليل والنهار»(١).

ونجد لذلك أمثلة فى شعر أبى محجن، منها قوله:

قد يكثر المال يوما بعد قلته ويكتسى العود بعد الجدب بالورق

فقد جمع بين الكثرة والقلة، والنضارة والجدب، وهذا مما يعطى المعنى جمالا وموسيقى خفية جميلة.

ومنه قوله:

فقلت لهم جهلا كذبتم ألم تروا أخاها سفيها بعدما كان حالما

أضحى وأمسى مستخفا مهيما وحسبك عارا أن ترى المرء هائما

جمع بين الأضداد فى قوله: سفيها، حالما وبين أضحى وأمسى، وهذا يعطى للمعنى قوة وجمالا موسيقيا رائعا.

ومنه قوله:

ترفع الصوت أحيانا وتخفضه كما يطن ذباب الروضة الهزج

فقد جمع بين علو الصوت وانخفاضه، وهذا هو شأن المغنية التى تزين صوتها بتغيير درجة الصوت وهذا الجمع بين الأضداد يوحى بموسيقى خفية جميلة

---

(١) عناصر الإبداع ص: ١٦٣ .

ومنه قوله:

عـمى الذى أهدى لكسـرى جـيـاده لدى البـاب منهـا مـرسل ووقـوف

جمع فيـه بين مرسل ووقوف أى: منها ما هو سـائم حر، وما هو واقف مقيد وفيه موسيقية جميلة.

ومنه قوله:

لا تسـألى الناس عن مـالى وكـثـرته وسـائلى القـوم عن دينـى وعن خلقى

جمـع فى هذه الأبيات بين: لا تسـألى، وسائلى والصـورة الأولى سالبـة منفيـة، والصورة الثـانية مـوجبـة والجمع فى هذا هو مـا يسمـيه البلاغيون طباق السلب.

فـأبو محـجن الثـقـفى لم يأت بالطبـاق لمجرد الزيـنة أو الزخرفـة اللفظية، بل كان يقصد إلى تلك الموسيقية الخفية، وليؤكد معنى يريده أن يتم به غرضا يهدف إليه، أو فائدة معينة.

الصورة الشعرية فى شعر أبى محجن الثقفى:

من عناصر التصوير الأدبى؛ بل من أهمها الصورة الشعرية وهى مستمدة من الخيال المعتمد على التشبيه والاستعارة والكناية، ومن الخيال تكسب الصورة الشعرية الحياة، وتبلغ بذلك أوجها الفنى فى التأثير والإثارة. والخيال هو الذى يقوم بهذا الدور لتشكيل وتكوين الصورة الشعرية عن طريق الجمع بين عناصرها الأخرى المختلفة من مصادرها، وإعادة التأليف بينها، لتصبح صورة للعالم الشعرى الخاص بشاعر ما، معبرة عن مشاعره ونفسه فكره.

ولأى نص أدبى شعرا كان أم نثرا هدف يسعى إليه صاحبه هو إثارة عواطف القراء، وإيقاظ انفعالاتهم بنحو ما يحسون به ويشعرون، ولا يتحقق هذا الهدف ما لم يحاول الأديب صب فكرته وعاطفته اللتين أودعهما نصه الأدبى، فى قالب تعبيرى موح، هذا القالب هو ما يسمى بالصورة الأدبية، أو الصورة الشعرية»(١).

والصورة فى شعر أبى محجن الثقفى تعتمد على الخيال ومنه التشبيه فنجده يقول:

وقالوا عجيب تركك اليوم قهوة كأنى مجنون وجلدى أجرب

فقد شبه نفسه فى حالة عجبهم لتركه الخمر بالمجنون أو الأجرب الذى يخافون منه العدوى.

وفى قوله:

ترفع الصوت أحيانا وتخفضه كما يطن ذباب الروضة الهزج

---

(١) عناصر الإبداع ص: ١٧٥

شبـه صوت المغنية التـى تلونه ارتفاعا وهبـوطا بطنين الذبَابة، وهو تشبيه ردىء على هذا الوجـه؛ لأن التشبيه الجيد هـو تشبيه طنين الذباب بالغناء، كما قال عنترة بن شداد:

وخـلا الذباب بهـا فليس ببـارح غـردا كـفـعل الشـارب المتـرنم

فقد شبه عنترة صوت الذباب وهو يغرد بغناء الشارب المترنم.

ونجد ذلك فى قول أبى محجن:

هـى النـار إلا أننـى نلـت لـذة وقـضـيت أوطارى وإن لام لائم

فقد شبه الخمر بالنار؛ فهى المحرقة المؤذية، ومع ذلك نال منها لذة، وقضى بها أوطاره رغم لوم اللائمين.

ومنه قوله:

فكر عليـه بالسـيف مـصلتـا كما عض الشبا الفرس الجموح

فقـد شبـه كر «نضلة» عليـهم وهم الأعداء من سلـيم وقد ازدروه عندما رأوه وكـان يمسك السيف مصلتـا بيده فى قوة لا نظيـر لها إلا فى عض الفرس الجموح على الشبا ـ اللجام ـ، يقول:

فـأطلق غل صـاحـبـه وأردى جـريحـا منهم ونجـا جـريح

ونجد التشبيه فى قوله:

ولقـد نظرت إلى الشمـوس ودونهـا حـرج من الرحـمن غـيـر قليل

قـد كنت أحـسبنى كـأغنى واحـد ورد المدينـة عن زراعـة فـول

فـقد شـبـه نفـسه بأغـنى رجل فى المدينة، وذلك فى إطار قـوله: أحسبنى أى كنت أظن أو أعتقد أننى أشبه أغنى رجل فى المدينة.

ومن عوامل إبراز الصورة الشعرية «الاستعارة»، وقد عرفها النقاد القدماء بأنها: «تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة»، وقد وضحها الإمام عبد القاهر الجرجانى بقوله: «وهى أن يكون لفظ الأصل فى الوضع اللغوى معروفًا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر فى غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم»(١).

والاستعارة إحدى قوالب الصورة الشعرية، وهى تتميز بالتكثيف والإيجاز، وفضيلتها الجامعة ـ كما يقول عبد القاهر ـ أنها تبرز البيان أبدا فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلا، وتعطيك الكثير من المعانى باليسير من الألفاظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجنى من الغصن الواحد ألوان من الثمر(٢).

وتتجلى الصورة الاستعارية فى شعر أبى محجن كعامل من عوامل إبراز الصورة الشعرية فى قوله:

وما رمت حتى خرقوا برماحهم ثيابى وجادت بالدماء الأباجل

نجده أسند الجود للأباجل حيث نزفت الدماء وذلك على سبيل المجاز التى هى ضرب منه، يتميز بنقل الاسم أو التعبير الوصفى إلى شىء لا يطابقه كل المطابقة، والاستعارة بهذا المفهوم وسيلة تشكيلية أرقى من التشبيه وأعمق وأعقد صنعة، وإن كان التشبيه أساسها وعمادها، وهو كالأصل لها(٣).

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ١٢ .

(٢) أسرار البلاغة ص: ٤١ .

(٣) عناصر الإبداع ص: ١٨١ .

فعلق هنا لفظ «جادت» وما تدل عليه من الجود والكرم والعطاء على معنى لم توضع له وهو إسالة الدماء من العروق.

ويقول أبو محجن:

إذا مت فادفنى إلى جنب كرمة تروى عظامى بعد موتى عروقها

علق فيه لفظ «تروى» وما تدل عليه من الإرواء على معنى لم توضع له وهو شرب الخمر، وأسندها إلى لفظ عروقها.

وفى قوله:

إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت مصارع من دونى تصم المناديا

علق فيه لفظ «عنانى» وما يدل عليه من المشقة والألم على معنى لم يوضع له، ثم أسنده إلى لفظ «الحديد»، وفيه لفظ «تصم» علقه على غير ما هو له وهو لفظ «مصارع»، وفى هذه الأمثلة يظهر لنا التجسيم للمعانى مجردا، وتشخيص النبات والجماد والحيوان بخلع صفات الإنسان عليها «والتشخيص وسيلة فنية معروفة قديما فى شعرنا العربى، وإن كان يغلب على استخدامها الوظيفة التفسيرية والتأكيدية، كما قال أبو هلال العسكرى: «إن من أغراضها شرح المعنى وفضل الإبانة عنه وتأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بقليل من اللفظ وتحسين المعرض الذى يبرز فيه»(١).

ويظهر التجسيم والتشخيص فى قول أبى محجن الثقفى:

وما رمت حتى خرقوا برماحهم ثيابى وجادت بالدماء الأباجل

فقوله: «جادت بالدماء الأباجل» تجسيم للمعانى وتشخيص للجماد بإسناد الجود والكرم وهى من صفات الإنسان للجماد.

---

(١) عناصر الإبداع ص: ١٨٥

والكناية إحدى قوالب الصورة الشعرية، ومعناها عند عبد القاهر الجرجانى: «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه»، وقد عرفت الكناية أيضا بأنها: «لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ»(١).

والكناية عند أبى محجن الثقفى نجدها فى قوله:

إن الكرام على الجياد مقيلهم فذرى الجياد لأهلها وتعطرى

فظهور الخيل مقيل الكرام عليها لا يفارقونها مجاهدين فى سبيل الحق والكرامة، وهذا هو لازم المعنى الموجود فى قوله: إن الكرام على الجياد مقيلهم. وهذا لا يمنع من إرادة المعنى الحقيقى. وفى قوله: فذرى الجياد لأهلها وتعطرى يلزم من ترك الجهاد لأهله الحقيقيين والاكتفاء بوسائل الزينة ومظاهر التجمل. وهذا لازم المعنى، ولا يمنع من إرادة المعنى الحقيقى، أى: ترك الجهاد والاكتفاء بالتعطر.

ونجد الكناية فى قوله:

إلى فتية بالطف نيلت سراتهم وغودر أفراس لهم ورواحل

وأضحى أبو جبير خلاء بيوته بما كان يعفوها الضعاف الأرامل

فقوله: «نيلت سراتهم» كناية عن قتل السادة والأشراف. وقوله: «خلاء بيوته» كناية عن قتله وخراب بيوته بعد عمارها بالخير. وقد لجأ أبو محجن الثقفى إلى الأسلوب الكنائى كسائر الشعراء للتعبير عما يريدون من المعانى القبيحة أو المستكرهة والمستهجنة أو المعانى العظيمة

---

(١) الإيضاح الشعرى تحقيق د/ محمود الطناحى طبعة مكتبة الخانجى القاهرة.

أحيانا عندما لا يريدون أن يفصحوا عنـها بشكل مباشر وهذه «وظيفة أقل أهمية من وظيفـة الصور الاستعارية والتشبيهـية، وذلك لأن قدرتها على الإيحاء أدنى من قدرتيـهما فهى لا تعدو مـجرد الإشارة إلى ذلك المعنى المستور»(١).

ونجد ذلك فى قول أبى محجن:

يا ضل ضل المنايا مـا تركن لنا عـزا نبـوء به مـا هدل الورق

ففـيه كناية عن ذهاب الغنى والأمل إلى غـير رجـعة، وذهاب كل شىء من بين أيديهم، وقوله: يا ضل ضـل المنايا: يريد: ما أضل المنايا، وهو مثل.

وتظهر الكناية فى قول أبى محجن:

وما رمت حتى خرقوا برماحهم ثيابى وجادت بالدماء الأباجل

ومن عناصر التصوير الشعرى «الحركة» وتعنى أن الشاعر يجعل من مقاطع هذا التصوير صورا متتابعة، يتلو بعضها بعضا فى حركة مستمرة، تتمثل فى هذه الأفـعال المتوالية التى ينتقل بهـا من صورة إلى أخرى(٢)، ومن أمثلة الحركة فى شعر أبى محجن الثقفى:

أنى تسـدت نحـونا أم يوسف ومن دون مسـراها فياف مـجاهل

إلى فـتـيـة بالطف نيلت سـراتهم وغـودر أفـراس لهم ورواحل

وأضـحى أبو جـبـر خـلاء بيـوته بما كان يعفـوها الضعاف الأرامل

---

(١) السابق ذاته ص: ١٦ .

(٢) الغزل فى شعر الأخطل مقوماته ـ مضامينه ـ خصائصه أ. د/ محمد عارف حسين الطبعة الأولى مطبعة الأمانة القاهرة ١٩٨٩م.

وأضحى بنو عمر ولدى الجسر منهم إلى جامد الأبيات جود ونائل

وما لمت نفسى فيهمُ غير أنها إلى أجل لم يأتها وهو عاجل

وما رمت حتى خرقوا برماحهم ثيابى وجادت بالدماء الأباجل

وحتى رأيت مهرتى مزوئرة لدى الفيل يدمى نحرها والشواكل

وما رحت حتى كنت آخر رائح وصرع حولى الصالحون الأماثل

مررت على الأنصار وسط رحالهم فقلت لهم هل منكم اليوم قافل

وقريت رواحا وكورا ونمرقا وغودر فى أليس بكر ووائل

ألا لعن الله الذين يسرهم ردای وما يدرون ما الله فاعل

نتأمل معا الحركة فى هذه القصيدة، ونلاحظ جوانبها المتعددة فهؤلاء الفتية فى هذه الحرب؛ قتل سادتهم وغنمت أفراسهم ورواحلهم، وصارت بيوتهم خلاء، وكنت معهم وما رحت من ميدان المعركة حتى نال منى الأعداء وسالت منى الدماء، وأصيبت مهرتى فى نحرها تارة وشواكلها تارة، وقمت بالمرور على الأنصار وهم فى رحالهم.

وللحركة فى التصوير قيمة فنية فى الشعر، وهى قيمة مهمة تزيد فى حيوية التعبير والشاعر الحاذق هو الذى لا ينقل ما يصوره مشاهد جامدة وصورا صامتة، بل هو الذى يحرص على نقل المشاهد فى لوحة حية متحركة حتى تبدو صوره ولوحاته ـ بهذه الحركة ـ أكثر أثرا وأعظم تأثيرا، والشاعر ـ بذلك ـ ينقلنا إلى ذلك الجو الذى يصور أحداثه، بكل دقائقه وجزيئاته وحركاته وسكناته؛ حتى لا يفوتنا منه شىء»(١).

---

(١) السابق ذاته ص: ٢١٥، ٢١٦ .

ومن عناصر التصوير الشعـرى بعد الحركة الصوت، ونجد ذلك فى قول أبى محجن الثقفى:

كفى حـزنا أن تطعن الخيل بالقنا وأصـيح مـشـدودا على وثاقـيـا

إذا قـمت عنانى الحـديد وأغلقت مـصـارع من دونى تصم المنايا

فالخـيل تطعن بالقنا، وهو مـشدود فى القيـد الحديد، فـإذا قام لا يستطيع، وهذه أصوات مصارع الجنود التى تصم الآذان.

ومنها الطعم والرائحة؛ فمن الأول قول أبى محجن الثقفى:

سـأتركـهـا مـذمـومـة لا أذوقـهـا وإن رغـمت فـيـهـا أنوف حـواسـدى

لقد انصرف عن شـرب الخمر فلن يذوقها ليدرك طعـمها بعد ذلك رغم إغراء أصحابه ورغم حقد حساده، ولن يشم رائحتها.

ومن الثانى وهو الرائحة قوله:

إن الكرام على الجيـاد مـقـيلهم فـذرى الجـيـاد لأهلهـا وتعطرى

ففى قوله: «تعطرى» أى الزمى تلك الرائحة الطيبة التى تضعها المرأة لتتزين لزوجها.

وبعد... فهذه تطوافة فى شعر أبى محجن الثقفى من خلال ديوانه قمت بهـا بغيـة الوصول إلى اكتـشاف بعض كنوز شعـره الأدبية الثـمينة لعشاق الأدب العربى، فإن كنت قد اكتشفت شيئا من هذه الكنوز فبفضل الله وعونه وتوفيقه، وإن كانت الأخرى فمنى ومن الشيطان.

والله أسأل أن يسـاعد ويعين كل باحث فى أدبنا العربى على تأكـيد أصالته لتـفاخر به أمتنا العربـية والإسلامية كل لغـات العالم وآدابها، إنه نعم المولى ونعم النصير...،

د/ السيد فتح الله عبد العزيز غزالة

مدرس الأدب والنقد

مصادر ومراجع البحث

(١) القرآن الكريم

(٢) أسرار البلاغة بعبد القاهر الجرجانى تحقيق/ محمود محمد شاكر ـ مكتبة الخانجى ١٩٨٤م.

(٣) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ـ طبعة خاصة ـ تصدرها دار الشعب عن طبعة «دار الكتب» ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م.

(٤) الإيضاح الشعرى تحقيق د/ محمود محمد الطناحى ـ طبعة مكتبة الخانجى القاهرة.

(٥) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى تحقيق/ محمد محمود شاكر ـ مكتبة الخانجى ١٩٨٤م.

(٦) ديوان أبى محجن الثقفى تقديم د/ صلاح النجد دار الكتاب الجديد بيروت لبنان.

(٧) ديوان أبى محجن الثقفى لأبى هلال العسكرى تحقيق الأستاذ/ يوسف عبد الوهاب.

(٨) ديوان النابغة الذبيانى تحقيق د/ شكرى فيصل بدون.

(٩) العمدة لابن رشيق تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد ـ طبعة خامسة ـ دار الجيل ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م.

(١٠) عناصر الإبداع الفنى فى رائية أبى فراس الحمدانى د/ محمد عارف محمود حسين ط. أولى مطبعة الأمانة القاهرة ١٩٨٨م.

(١١) الغزل فى شعر الأخطل ـ مقوماته ـ مضامينه ـ خصائصه د/ محمد عارف محمود حسين ط. أولى مطبعة الأمانة القاهرة ١٩٨٩م.

(١٢) فى صحبة الأدب الجاهلى د/ فتحى محمد أبو عيسى ـ طبعة ١٩٩٦م.

(١٣) المثل السائر لابن الأثير تحقيق أحمد الحوفى وبدوى طبانة طبعة أولى ١٩٥٩م.

(١٤) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس ـ الطبعة الثالثة الأنجلو المصرية ١٩٥٦م.